الفاتح كامل

الثلوج الغاربة

(رواية)

إهداء

***إلى روح أديبنا الفذ الطيب صالح، أهدي هذه الرواية لأنني أحس فيها دين مباشر لعبقريته الخالدة، كما أن روح إبداعه النيرة تتجول في ثنايا كل كلمة من كلماتها .**

تقديم

هذه المقدمة ليست اعتذاراً عما سيرد في هذه الرواية من أحداث، ولكنها استباق لما سوف تثيره من جدل في أوساط مختلفة، فقد بدأت في كتابة هذه الرواية عام ١٩٨٣م وانتهيت من كتابتها في ١٩٨٨م وكنت وقتها طالباً بجامعة الزقازيق بجمهورية مصر العربية. وقد أحجمت عن نشرها كل هذه الفترة تحسباً لإثارة مثل هذا الجدل في وقت مبكر من سني ـ حيث لم أتعد نصف العقد الثانية من عمري حينها ـ ومن بداية كتاباتي الأدبية، حيث كنت أقدم رجل وأؤخر الثانية حتى حسمت أمر نشرها في عام ٢٠١١م بعد أن فوضت أمري لله.

فأغلب مجريات هذه الرواية للحقيقة، خيالية ولا تلامس واقع محدد من لحم ودم بأي شكل من الأشكال. وهي في نهاية المطاف محض اختلاق عقل جامح، حاول مجتهد تبيان الحد الفاصل بين الحق والباطل، الخير والشر على الطريقة التي تخيرها، أصاب أو أخطأ.

وفي كل انتصر هذا العقل شديد الجموح في الأحداث التي سوف تطالعونها للحق والخير والفضيلة برغم شدة فظاعة بعض أحداث وألفاظ الرواية والتي قد تصل في بعض الأحيان لحد الإيلام الأخلاقي، على الرغم من أنني خففت كثيراً من حِدة ألفاظ المسودة الأصلية ـ وتم تحديث بعض الوقائع بتواريخ لاحقة ـ ولكن حتماً صورة مثل تلك توجد في واقعنا المعاصر ما هو أشد إيلاماً منها ...

(للباحثين عن الماء في عمق الصحارى، للتائهين في سماوات الرؤى ابتداءً بلا انتهاء، أهدي خبزي العلقم، قصة حياتي)

أحمد سالم مهدي

(١)

أحكم الليل سدوله وأنا أحث الخُطى، أحد أيام فبراير الروسية نحو مقبرة فاجانكوفو . كل شيء من حولي يُنذر بالنهاية، باللا عودة. السماء الغائمة والجليد نسجا في تلك البقعة ثوب الموت في نظام رائع، وبداخلي تضطرم أنواع شتى من الأحاسيس. وثمة وقع أقدام من خلفي تبدو ظاهرة زاد من وضوحها الليل والخوف الذي يتفجر بين جوانحي.

مَن هناك؟ .

جاءني صوته مرعباً. وقفت برهة، وقلبي يكاد يخرج من بين ضلوعي ، وخرج صوتي أخيراً من بين شفاهي المرتجفة، كحشرجة

أحمد سالم

وماذا يريد السيد أحمد سالم وسط المقابر، في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل؟.

اقترب الصوت مني قليلاً، ثم ما لبثت أن تبينت فيه حارس المقبرة.

عفواً سيدي، لعن الله الظلام، كنت أظنك مجهولا يتبعني. إنني أريد زيارة مقبرة الدكتور سالم مهدي، رحل في دياركم منذ ما يقارب العقدين.

هو إذاً والدك؟

لم أرد عليه، ولا أدرى كيف عرف وسط كل هذه العُتمة، تشابه الاسم الأول عموماً في كثير من الحالات قد لا يعني شيئا.

لا أظن أنني أعرفها وهم بأن يتحرك، لعله راجع نفسه قبل أن يأتيني صوته كأنه يخاطب أصداء ذكرى قديمة في نفسه أثارها سؤالي عن ذاك الرجل...

يا بُني نحن أبناء الحاضر، يجب ألا نعيش كثيراً في الماضي ونصبح أسارى أحابيله. الذي قد مات هنا غريب يرقد في نهاية هذا الممر يمين. قد يكون جسده هنا تحت تراب تلك المقبرة، لكن روحه ربما تحلق الآن وفي هذه اللحظة بالذات في أماكن أخرى بعيدة لا ندريها. كلنا يا ابني يُخطي، وقد تمتد أخطاؤنا كبشر إلى غيرنا في أحيان كثيرة.

ولكن عموماً هناك رب رحيم، نستظل جميعاً تحت سمائه الواسعة. قد يغفر لنا حتى أخطاءنا المزدوجة هذه، عموما لا تتأسف كثيراً على ما مضى. وربت على كتفي بحنان...

هذا الرجل الغريب، وللمرة الثانية على التوالي وفي لحظات قليلة يقرأ أفكاري ويمس خواطري، ثم ماله في بلاد الكفر والإلحاد هذه يتحدث بهذه النبرة الإيمانية العالية واليقينية؟!.

عموماً قبل أن يقرأ أفكاري هذه المرة، وحتى قبل أن أشكره على معلوماته القيمة ولى تاركاً لي ظهره والحيرة والليل وثلوج الصمت مرة أخرى ...

واصلت سيري، وها أنا أخيراً في نهاية الممر يميناً. بالقرب من مقبرة فيرا حيث يرقد الجسد الطاهر النبيل. أشعلت عود ثقاب حملته بين يدي من أجل هذه اللحظة، لعلي ألمح مقبرته أو حتى شاهدها. ضاعت عدة محاولات سُدى في هذا الصقيع اللا متناه، وأخيراً نجحت في إشعال أحدها. وكدت أطير من

الفرح، صدقوني من الفرح في مثل هكذا لحظة تراجيدية أليمة ومخيفة، فقد نلت إحدى أمنياتي الموءودة في الحياة...

و بخط روسي واضح على المقبرة كان أسم أبي مسبوقاً بلقبه العلمي ـ هكذا خيل إلى في لحظة مثل تلك احتفاء القوم بالعلم والعلماء ـ مدون بعناية على سطحها الرخامي المستطيل. الدكتور سالم مهدي المتوفى عام ١٩٦٩م.

هو إذن، فالذي أعرفه جيداً أن والدي كان من أوائل السودانيين الذين ذهبوا لنيل دراسات عليا بتلك البلاد ولم يعودوا، بعد أن نال السودان كامل استقلاله قبل ذلك بأعوام.

أخيراً ها أنا أجدك يا والدي، نعم أجدك وأنت ترقد تحت الثرى، ذكريات أيام قضيتها في البحث عنك بين ضعضعة الأيام. حول بعض القبور يا أبي كانت توجد بعض الأزهار الذابلة لعلها بقايا زيارة الأحد السابق أو الأسبق. وحولك لا يوجد إلا الجليد... لعل روحك في هذه اللحظة راضية أو غاضبة لزيارتي لا أدري. أخيراً تذكرك إنسانا على وجه الأرض. لكن كل هذا لا يهم كثير، فقد يكون جسدك موجوداً هنا تحت هذه المقبرة الرخامية الفاخرة، من الذي صممهما بهذه الدقة يا ترى؟. وقد تكون شارداً، هارباً كعادتك، فأنت لا تطيق الأسر ولكنك اليوم مأسور بإرادة أقوى من إرادتك، أقف أنا بجوارك وبيننا هذا الجسر الوهمي الفاصل بين الحياة والموت.

(٢)

المسافة كانت تزداد اتساعاً في حياتي بين الحلم والواقع، إني لأمقت هذه اللحظات التي أسود فيها ذاكرة الزمان ببعض كلمات أبثها أنفاسي الحرى، المحترقة . لكن حتماً كان لا بد من البداية، نعم البداية. بداية إجهاض الحلم وسيطرة الواقع.

حاجة فاطنة ليلة وفاتها صرحت بكل ما هو غريب وعجيب، هذا الكلام الذي ما زال يطن في أذني حتى الآن. وما زلت أقف منه موقف المكذب رغم تتابع الأحداث أمام ناظري بعد ذلك...

أمك لم تمت ليلة السيل. ليلة السيل كانت ليلة مولد سالم مهدي. أمك توفيت أثناء وضعك. و أم سالما أيضا توفيت أثناء وضعه.

الفرع يخرج الأصل من الحياة. قمة المأساة .

فاطنة بت محمود لا تعرف الكذب كما كنت أعتقد جازما ولردح من الزمان ولدرجة اليقين، لكنها كذبت علي ولسنوات كذبة عمرها كله. أكذوبة وفاة والدي ليلة السيل.

ولأذهب كل مرة لمقابر الحي وأصلي على روح شهيدين وهميين زرعتهما في خيالي الصغير وقتها لترحمني من عذاب تخيلته، دون أن تدري بأنها قذفتني في جحيم قصف بكل مرتكزات حياتي فيما بعد.

كل بلد تعطي أسرارها لأهلها، لكنني وطن الغربة الأبدي ، لا بلديا ولا بلادا غيري وهبتني مجرد الأمل في شيء مثل ذلك ... طوال عمري كنت أتأرجح بين النقيضين التشاؤم المفرط والتفاؤل المطلق...

مالي هكذا أتقلب كالأيام ولكن بلا نقطة ارتكاز واحدة...

كل بلاد الله أنا فيها

أخذتنا منك الأسفار يا وطني...

وقبل ذلك بكثير كان سالم مهدي قد فر إلى روسيا بمحض إرادته ، ما تأتي به الريح يا والدي لا تأخذه إلا الرياح نفسها ...

كنت ساهماً، شارداَ كعادتي . حينما دخلت غرفتي مدام ـ فأنا لا أعرف لها زوجاً ، عموماً هكذا كانوا ينادونها ـ مارفا ليوبوف حتى أنني لم أشعر بدخولها المفاجئ.

هل تريد شيئاً، سيد أحمد سالم؟.

لا ...شكراً مدام.

وخرجت كما دخلت بهدوء ...

لماذا تصر هذه السيدة على أن تذبحني بلفظ السيد هذا؟.

وأنا من سلالة العبيد، القهر والأغلال في دمي ...

لكن الأمر عند سالم مهدي كان مختلفاً جدا. فقد كان يظن أنه خلق من سلالة من غير طينة البشر. سلالة خلقت لتحكم وتسود عكسي تماماً. كان يحلم بليال لن تعود ـ كما أعتقد أنا لا هو ـ تحت ظلال أقمار غرناطة وقرطبة وإشبيلية، لكنني سيدتي لم أكن في يوم من الأيام سيدا حتى على نفسي. ثم لماذا تصرين على أن تقتليني كل يوم ألف مرة باحترامك الزائف هذا، ثم أن نظرات الشبق هذه التي تنبعث من عينيك وتطاردني حال قيامي و \منامي، تطحنني ولا تستطيع كلمة الزيف هذه، السيد ، محوها.

ظللت شارد الذهن عقب دخول وخروج مدام مارفا المفاجئين. نعم أنا أحب الثمار الناضجة، وقد يعجبني في بعض المرات المقطوف

منها خصوصاً، ولكن مدام مارفا لم تكن ثمرة ناضجة فحسب، بل لدرجة التعفن...

كمقياس حراري رديء الصنع، كُنت . ترتفع درجة حرارته ثم لا تلبث أن تنخفض. أو كموجة بحر طامحة يجذبها إلى أعلى نشوة انتصارا ،وينزلها إلى أسفل ذل انكسار . تتطاول قامتي السحاب مرة، فتصيبها خيبة أملي فتنزل أسفل سافلي الأرض مرات. وأنا بين هذا وذاك ريشة في مهب الريح ، ثم مالي أنا وعوالم مارفا ليوبوف شديدة الإعتام...

رأسي غابة أفكار غير قابلة للتنفيذ، ثم أنه مارفا ليوبوف ، سالم مهدي ، فيرا و حتى الحاجة فاطنة هم أنفسهم كانوا يسيرون وفق ديناميكية الحياة في أغلب الأحيان دون إرادة منهم، ووفق خطة محكمة.

وحتى أنا بشير الإصلاح المزعوم لم أكن أملك حرية الاختيار ، اختيار من ومتى وكيف أكون؟.

وسؤال جدلي طالما ظل يقلق ذهني الكبير مرة والصغير مرات ، هل لنا يد في كل مما يحدث حولنا من أحداث؟.

لا بد مما لا بد منه...

(٣)

ليلة مولد سالم مهدي، كانت ليلة مشهودة لم تر مدينتنا مثيلاً لها في عهودها السابقة أو حتى اللاحقة . أمطار غزيرة غطت كل شيء البشر قبل الحجر، وصواعق أحرقت الأخضر قبل اليابس.

السُحب كانت في تلك الليلة وكأنه بينها وبين تلك المدينة الوادعة ثأر ، فصبت جام غضبها سيولا ونارا حولت بيوت المدينة الطينية لكتل من الحطام والرعب.

وبين فينة وأخرى كانت تدوي صرخة لا تلبث أن تضيع وسط أصوات الرعد. تنبئ عن وفاة رجل مسن تحت حائط سقط لتوه أو تيار الماء العارم قد جرف طفلاً أو امرأة عجوزا لم يحتمل قلبها هولا ما رأت فماتت من رعبها.

و في مثل تلك اللحظات الحرجة كانت أم سالم الهندي تكابد الآم وضعه وصوت صراخها يضيع وسط الآلف الصرخات المنبعثة في أرجاء المدينة الوجلة.

وكلما أستمر الليل والمطر وأنفاس المرأة تزدد تلاحقاً.

كأن هذا الصبح لا يريد أن يسفر .

وكأن هذه الأمطار لا تريد التوقف للثأر المشار إليه أعلاه.

ومع تباشير الفجر الأولى بدأ يلوح في الأفق بصيص أمل . فقد بدأت الأمطار تخف لتوها .وفي بواكير الصباح توقفت .

و وضعت أم سالم مولودها البكر الأول و الأخير ،و في نفس الوقت حداً لآلامها وفارقت الحياة.

(٤)

مدينتنا في تلك الأيام ، أشبه بالقرية الوادعة. أغلب منازلها من الطوب النيئ المطلي بالزبالة ، سقوف المنازل من الخشب البلدي والسعف ، أبوابها حتى ذلك الحين لم تعرف للحديد طعماً ، كانت في أغلبها من خشب السنط ومفتوحة طوال اليوم ...

هؤلاء الفقراء هل سيسودون يوماً؟، لا أظن .

لكن هذه الهياكل البشرية ، قنابل تسير على أقدام وقابلة للانفجار في أي لحظة، وقادرة على خنق ينابيع الحياة في كل ما ينبض من حولنا...

وحتى ذلك الحين كانت مدينتنا كريمة، عفيفة اليد، القلب واللسان، ولم تعرف الخوف والابتذال بعد...

مراحيض المنازل عبارة عن حفرة لا تتجاوز الثلاثة أمتار في غالب الأحيان، معروشة بالأخشاب وجريد النخل.

ليلة السيل انهارت أغلب تلك المراحيض وتحولت المدينة لبالوعة كبيرة وبلعت فيما بعد ضمن ما بلعت من قيم و معان رفيعة سالما المهدي بعد أن بُثت فيها عدوى التطلع إلى ما لا يفيد ..

المنازل الطينية ما عادت طينية أصبحت من الأسمنت المسلح، ولم تعد تلائم حتى البيئة الحارة وأصبحت سقوفها الصلدة تلهب عقول الكبار قبل الصغار ، ـ ليل نهار ـ ...

الكهرباء الوليدة بدل أن تذهب للمشاريع الزراعية، تحولت إلى طاقة تبريد في البيوت تذهب عنا ناراً أوقدناها بأنفسنا ...

الحمير لم تعد وسيلتنا المفضلة للتنقل، الوقود أحرقناه في العربات الوافدة علينا بدلاً من ذهابه لمستخرجات المياه وأمامنا نهضة زراعية مأمولة . أمراض نشأت نبت أيدينا ولا نستطيع الخلاص منها وإن تعاقبت الحكومات...

المدينة ، القرية الوادعة. ما عادت وادعة ولا مستسلمة ، أصابتها العدوى التي أصابت سالم المهدي قبل ما يزيد على العشرين عام...

أهل المنطقة أصبحوا جزراً معزولة، حين اتحادهم حار الأعداء في كيفية اختراقهم، ومشاكلهم كانت تحل دون تعب ودون أن يحسوا بعظمها. لكنهم اليوم أضحوا سخرية بين الأمم، ومصاعبهم كل يوم تزداد تعقيداً.

هذه الديار في بعض لحظات جدها المفترضة يصير خيرة أبنائها غرباء فيها، فوائدها في لحظات مثل تلك لا يجنيها إلا الغزاة

والفاتحون، كالساقية التائهة التي تدور وتروي أرض الأغيار

وأهلها ظمئي ...

مدينتنا التي ودعت في تلك الليلة خيرة رجالها ونسائها غرقا بالسيل أو السقوف المنهارة، استقبلت سالم مهدي ..

مدينتنا التي ودعت أم سالم وهي تكابد الآلام وضعه وهي ممسكة بالتراب، لم تشاهد مصرعه بين غرف موسكو الباردة وجدرانها الصماء التي مات متعلقاً بأهدابها.

في ظل منظومة أن يظل الفقراء فقراء للأبد، والأغنياء أغنياء مهما تقلبت بهم الظروف، كان أي تصرف يصدر من سالم مهدي مقبولاً ولو كان هذا التصرف مخالفاً للأعراف والتقاليد .

سالم مهدي كما أخبرتني حاجة فاطنة فيما بعد إخطبوط نشأ وترعرع على حساب كل من حوله...

إن تنهار أنت فليس ذلك بالمعضلة الكبيرة، ولكن أن ترى دعائم أمة تنهار فذلك ما لا يمكن احتماله...

مدينتنا في تلك الفترة كانت آيلة للسقوط بفعل المطر والإهمال وأشياء أخرى... صارت مدينة لا تعرف غير الجزع، تلد الخوف ...

(٥)

الشهور التي أعقبت وفاة فاطنة بت محمود قضيتها منفرداً مع ذاتي، تلك المرأة التي دفعت عني غائلة التشرد بدايات حياتي من دون أن تكون من بقية أهلي وهذا يحدث كثيراً في بلادنا.

سائر أهل بلادي بسطاء، نعم لهم مساوئ كثيرة ، لكنهم طيبون للغاية لذلك أحبهم ، فأتمنى أن تحبيهم يا فيرا كما أحببتهم حتى وإن لم تعاشريهم طوال حياتك...

لكن هل كان حبي لهؤلاء البسطاء صادقاً وحقيقياً؟، أم تدخلت فيه بعض عوامل الأنانية مني، سؤال طالما أقلقني وحاولت الإجابة عليه فلم أقدر...

روحي خلقت مجنحة لا تقوى على الاستقرار في مكان واحد.

الطائر المكسور الجناح ، حتماً سوف تبرأ جراحه ويعاود التحليق من جديد...

وشددت ترحالي إلى موسكو للبحث عن سالم مهدي الوهم والأسطورة التي ظل مُعشعشاً داخل مخيلتي كل سني حياتي وأكثر من عشرين عاماً قضيتها وحيداً بين ضعضعة الأيام والأفكار.

(٦)

بين الهجرة والفاقة والطموح، الذي كان صغيراً، نما وكبر يا حاجة فاطنة، نعم تثاقلت عليه أمور كثيرة، ولكنه احتملها بصبر وجلد ، وها هو الآن يجنى حصاده المر...

بين الهجرة والفاقة والطموح ،مرت أحداث مهمة في حياتي، احباطات كثيرة .أحدثت تغييرات هائلة في شخصية أحمد سالم ، السوداني شديد الورع.

أنا لست حاقداً على أحد فما زلت أحتفظ بمقدرة عالية على التسامح وفي أحلك الظروف. ولكنني ناقم على الوضع الذي وجدت فيه نفسي والذي جعلني خارج دائرة الأحداث في فترة مهمة من فترات أمة الأمجاد.

وضعاً صارت فيه أمتي قبلي، نهباً لأطماع كل من هب ودب.

(٧)

عقب ليلة محمومة قضيتها مع مارفا ليوبوف، الفيت نفسي نائماً في سريرها الحديدي الضخم.

رأيت فيما يرى النائم حاجة فاطنة، ثمة طريق ملء بالحفر على جانبيه أرتال من التراب .أخذت بيدي وراحت تسوقني قرب جدول يحفر حديثاً. لعل التراب على جانبي الطريق أخرج منه.

وسرنا مسافة طويلة والجدول لا نهاية له، تعبت أنا أول ثم تعبت هي . وآثرت في نهاية المطاف الرحيل في صمت وفي عيونها الكثير الذي لم تقله...

هببت من نومي مذعوراً لأجد نفسي في سرير مارفا ورائحة الفودكا تفوح في كل مكان .

ماذا أتى بك إلى هنا حيث مستنقع الرزيلة يا منابع الطهر والبراءة والنقاء؟.

كأنك علمت ما حل بفلذة كبدك من نوائب الدهر، فحاولت دون جدوى إنقاذه، فوجدت طريقه ما زال طويلاً ومحفوفا بالمخاطر فآثرت الرحيل في ذلك الصمت المبين.

لماذا تتركينني يا منابع الطهر في هذا المستنقع وحيداً تعبث بي الأقدار؟.

وكما جاءت الحاجة فاطنة إلى ذلك المكان خرجت، فمارفا ليوبوف المتحصنة بحليفها الدائم فصل الشتاء قادرة على صد أي هجوم فعلتها من قبل مع الألمان وتفعلها الآن مع الحاجة التي لم تعرف غير هجير السودان رفيقا...

(٨)

حاجة فاطنة، ليلة احتضارها. وقبل أن تخبرني بقصة أبي ورائحة الضريح تفوح في كل مكان من حولنا .أخبرتها بأنني سوف أفعل المستحيل لعلاجها، ولو استدعى ذلك السفر لبلاد بره .

وذلك رغم إيماني المطلق بأن فاطنة بت محمود قد دخلت مرحلة اللا عودة.

في ذلك الوقت العصيب وهي تقاوم لحظاتها الأخيرة، لمع بين عينيها طيف ما، لم تقدر أن تحبس معه دموعها وفي حشرجات موتها طلعا صوتها متعثرا، حاسب يا أحمد من ناس بره ونسوان بره وجَنوُن بره .

وكأنها قرأت في عيني حينها داء الرحيل، ذاك الداء الذي أصاب سالم مهدي منذ أكثر من ثلاثين عاماً...

لم تكن حاجة فاطنة حينها تدري ما زرعته في داخلي من حنين لرائحة المطارات القديمة والأجواء الباردة عندما سردت هجرة المهدي لبلاد بره والتي كانت بلا عودة ...

ولم تكن فاطنة بت محمود تدري أيضاً بأن كل أبناء جيلي تقريباً كانت الهجرة بالنسبة لهم ظمئاً لا تطفئه إلا مرافئ الغربة. وأيضا لم تكن تعلم ما في دواخلي من هوس شديد بالنساء وما أعانيه من شدة الحياء الذي كان يلازمني في تلك الفترة والذي لم أستطع معه إسكات نار أشواقي في بلادي، التي قد تطفئها نسوان بره وما أدراك ما نسوان بره...

ماذا يا ترى كانت ستقول فاطنة بت محمود لو عرفت بأنني سوف أسافر لتلك الأصقاع الباردة، وماذا كانت ستقول عن نساء الروس وجَنوُن الروس .

(٩)

قامت مارفا من بجواري تتثاءب ، ما الذي أيقظك مبكراً هكذا يا أحمد ؟ قالتها بدون لفظة السيد التي أدمنتها، فعندما تخلع السراويل يزول كل احترام وخصوصاً كل ما كان منه زائفا.

عموماً لم أجب على سؤالها لأنني لم أسمعه أصلاً، فقد كنت في ذلك الوقت في عالم آخر أستحضر عالم طهر الحاجة فاطنة.

وهي في كل الأحوال لم تكن في حاجة لإجابة من سي السيد فقد كانت هي الأخرى في تلك اللحظة في عالم آخر تستقطر شياطين انسه و جنه وما أدراك ما انس وجن الروس.

وبعيون شاردة لاحظتها وهي تتجرد من ملابسها، إن كانت هي تلبس أصلا أي شيء.

هببت من السرير مذعوراً ،ألم يكفك ليلة أمس العاصفة يا مارفا ؟

لم تجب على سؤالي في كل الأحوال، وباغتتني بآخر تتهرب به، هل من الأفضل أن تنام أنت بالأسفل؟.

نظرت إليها باحتقار شديد تعجز كل كلمات البشر أن تعبر عنه، ولم أرد عليها طبعا.

قامت والماء يقطر منها ... الذي حيرني حقاً من أين أتى كل هذا الماء؟، فأنا لم أتجاوب أصلا ناهيك أن أرمي بكل هذا الماء الذي إن أفرغته يد النساء صار أجلاً دون ماء.

بدواخلك دوافع رجولية حقيرة مدام مارفا ، وبصقت في وجهها وركلتها في مؤخرتها أي و الله ـ وإن كان مقام الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يليق إيراده في موضع كهذا وبهكذا لسان ـ أي والله أول مرة أبصق في وجهها وأركلها في عجيزتها المترهلة بفعل السنين وأشياء أخرى يمنعني ما تبقى من حياء في ماضي أيامي من ذكرها ...

المهم أنا نمت فوقك ، رقدت أعلاك .

وأخذت تضحك بطريقة هستيرية ترج أنحاء الغرفة الباردة.

ببرود لا يضاهيه إلا برودة غرفتها وأجواء بلادها في تلك الفترة، أجبتها لا يهم من رقد أعلى من ، ففي النهاية من يقوم بالدور الإيجابي أنا لا أنت.

هرعت إلى الحمام حالما قويت قدماي على حملي، بعد معارك روسية عنيفة استنفدت قوات الحلفاء فيها كل قواها العقلية والجسدية وكل أنواع الذخيرة والأسلحة الثقيلة وغيرها...

وكما دخلت خرجت. حتى لحظتها لم أدر أن أدران الروح لا تقدر على غسلها حتى كل مياه الأنهار...

مارفا ليوبوف تعاني أنواع شتى من شهوة تعذيب السادية المُقيتة. ألذ لحظات حياتها تتماثل للاكتمال، عندما ترى شقاء الآخرين من حولها.

هكذا أخبرتني عن سابق أيامها حينما كانت كبقية نساء الأرض.

واليوم بعد انقطع عنها ما يصلها بالنساء تتشفى وتكون في عنفوانها عندما ترى عذاباتي وتصرخ بطريقة هستيرية...

في لحظة مثل تلك تعض كل شيء يصادفها حتى وسادات السرير لم تسلم منها.

بعض الأشياء تبدو من خارجها جذابة باهرة ربما لغموضها أو لهالات نحن نضعها بأنفسنا من حولها. ليلة رأيت لأول مرة يد مارفا ليوبوف البضة البيضاء برغم ترهلها. في حديث النفس الكذوبة أسررت بأن لا بد من أماكن أخرى أكثر بياضاً وبضاضة، أماكن لم تزرها الشمس بعد لابد من استكشافها ولو طال السفر. أماكن لا بد من الوصول إليها ، ذاك الجسد اللدن البض ، لا بد من أن أمرر يدي في أماكن الإحساس فيها، والذين يدعونني للولوج فيهما ، لا بد لي من ألج مستودع أسرارها ـ مستودع الفضيلة الذي يفترض والذي تحوله مارفا وأمثالها مستودعاً للشر والأشرار ـ مستودع أسرارها ذاك الذي يهفو إلي بصورة جنونية تنبئ عنه إيماءتها كلما رأتني وكلما تتفوه بشيء من ذاك القبيل ، وقادتني يد مارفا البيضاء البضة إلى أماكن مظلمة مجهولة ...

كنت أتفنن في اختلاق الأعذار لأتهرب من مارفا ليوبوف كل ليلة. حينما أكذب للهروب منها كانت تتهمني بأنني أكبر مخادع عرفته في حياتها بل إنني أكبر مخادع جادت به الدنيا. ولكنني ماذا أفعل سيدتي حيال عقل جبار بكل المقاييس وفوق كل ذلك يمتلك خيالاً جامحاً قادراً على تضخيم وتسويق حتى الأعذار التافهة الصغيرة؟.

(١٠)

قصة حياتي كلها كانت سيمفونية صراع متواصلة، تارة بين الحق والباطل وتارة أخرى بين الباطل والحق. إني لأذكر تلك الحادثة جيداً . في بواكير طفولتي لم أكن حينها قد تجاوزت التاسعة من عمري، يوم عادت الحاجة فاطنة ودمعها يجري على خديها، فزعت لذلك أيما فزع ففاطنة التي تفيض رحمة و حنان على رغم ذلك كانت متماسكة على نفسها ولم أرها قط تبكي إلا في الشديد القوي، وفي مرات قليلة على تتابع المصائب التي كانت تقع عليها.

سألتها في ذعر عما أصابها .

أجابتني بين دموعها بأن ذلك الكلب تجاوز كل حدوده عندما هاجمها دون إنذار . وطاردها ولم تتمكن من الإفلات منه إلا بصعوبة. وكانت تقصد كلب ناس حاج العبيد جيراننا.

حاجة فاطنة المحترمة من الجميع كانت تتخيل أن احترامها هذا يجب أن يمتد حتى للكلاب...

وأقسمت حينها في سري بأن اليوم هو أخر يوم لهذا الكلب اللعين الذي لم يسلم من شره جميع أهل الحي ، أما أن يتطاول على فاطمة فهذا شيء مختلف... ذاك شيء خطير مخل بكل القوانين والأعراف.

وتربصت به في اليوم التالي حتى رأيته نائماً تحت ظلال أحد الجدران، كان النهار حينها قائظاً والشارع يخلو من المارة في تلك الساعة من الوقت.

متمددا على الأرض و مخرجا لسانه الأحمر الطويل وجدته. وبعصا غليظة كانت في يدي رفعتها وبكل ما أوتيت من قوة هويت بها بين عينيه شبه المغمضتين .للحظات خَلت، خِلت رأسه وكأنه انشق نصفان ، ولكن الكلب أخذ يعوي ويعدو كالمجنون في الاتجاه المعاكس لي. ومنذ ذلك الحين لم يعد أحداً يراه في الحي، وفي اليوم الثاني أورثتني تلك الحادثة بطولة أسطورية بين الجيران وعداوة دائمة من حاج العبيد وأولاده.

عدت للمنزل والعرق يتصبب من جبيني وأنا بين مصدقا ومكذبا لما فعلت.

وقصصت على حاجة فاطنة القصة التي أضاف عليها خيالي الكثير المثير ، وذلك بأنني حملت سيف جدها المعلق بعناية على الحائط ، وكانت من الأشياء النادرة التي تمتلكها وتعتز بها ولا تسمح لأي كان المساس به .وبالطبع لم تلاحظ أنه لم يزحزح من مكانه.

ولكن في كل الأحول واصلت حكايتي وكيف أنني ضربت به الكلب في أم رأسه وأن الدم لم ينزف من رأس الكلب رغم انشطاره نصفين ولم أجد الكلب بعد ذلك وكأن الأرض انشقت وابتلعته...

كانت تلك أول مرة أكذب فيها بحياتي، وبعد ذلك أدمنت الأكاذيب حتى صرت وهماً من الأساطير نسجته بيدي هاتين.

في ذاك اليوم دعت لي بت محمود بطول العمر وأن يرزقني الله الرزق الحلال والزوجة الصالحة ومنذ ذلك اليوم وأنا أتذوق أطيب الطعام وأجمل النساء بالحرام، دون متعة...

ما فائدة الطعام الجيد مع جسد قد خبث وما جدوى التمتع بالنساء مع نفس لوامة؟.

كانت تلك أول دعوة تخيب للحاجة بت محمود.

بت محمود يوما قلت لها بعد ذلك، إنني لن أستطيع العيش في هذا البلد ، لأن هذا البلد لن تقوم له قائمة أبداً بسبب ما يدور فيه من تجاوزات تطال طبقاته المطحونة.

قالت لي وبالحرف الواحد: الله يزيدك في جهلك. أنا في نظر فاطنة جاهلاً لمجرد تعبيري عن رائي بصراحة. لكنها كانت تصر على تلك الجملة كلما عبرت عن رأي ترى فيه خطلاً من وجهة نظرها، وكنت أحترم رأيها في كل الأحوال بحكم أنها الوحيدة التي تصدت لتربيتي طفلاً في وجه أهوال الزمن .

عندما ذهبت للخارج عرفت لماذا هم يتقدمون بينما نتخلف نحن. ففي دولنا من يتبوأ أعلى المناصب هم العاطلون عن كل موهبة. وفي بلادنا أهل الفشل المزمن هم من يتقدمون الصفوف بينما الأفذاذ يتجرعون مرارة الهزيمة والاحباط وأشياء أخرى .

(١١)

المسبحة دارت وسوف تكر، وهل هناك من يقدر ليوقفها؟. أمالي كانت قصور في الهواء لم تكن من رمال كي تحتاج رياح لتهدمها.

بغداد التاريخ والحضارة لم تصمد طويلاً أمام هجمات التتار. كتبها كانت المعبر، ديست بالأقدام، سنابك خيولهم مرت من فوقها. مياه دجلة ما عادت تروي الظمأ، مداد الكتب والدم اختلط بماء النهر، بعضه خرج مع العرق فيما بعد، وبعضه تبخر في الهواء مع ما يتبخر من أشياء تتلاشى في كل مرة في ظلمات التاريخ الأولى. لكن الأجيال التي رأت النور بعد ذلك والتي لم تر النور بعد ما زالت تعاني منها.

ومارفا ليوبوف وعت درس التاريخ جيداً. هولاكو لم يكن عالماً أو فيلسوفاً أو حكيماً لكنه دون اسمه في سجلات الفاتحين رغم أنوف الشعوب المتعطشة للحرية والخلاص من نير الارتماء.

وفي موسكو دلوني عليها ، سيدة أرملة ، تقيم وحدها. وتؤجر غرفة بمنزلها للطلاب الوافدين من أمثالي ريثما تفتح داخليات الجامعات، وفي مرات أخرى لكل عابر سبيل.

ذهبت إليها تقودني أقدام تورمت في البحث عن سالم مهدي...

أول مرة رأيتها فيها أعطيتها عمراً تقريبياً. هي حتماً قد تجاوزت الخمسين من عمرها بكثير أم قليل لا أدرى ، ولا أعرف عمرها تحديداً حتى اللحظة وحتى بعد أن عاشرتها.

بدينة، على ملامح وجهها شيء من الملاحة الذاهبة. منها علمت بأن لها بنتاً وحيدة تدعى فيرا، تقيم في مدرسة داخلية للباليه

بضواحي موسكو وتأتي في الإجازة السنوية. وإنني يمكن أن أخذ كامل راحتي، كانت العبارة غريبة على مسامعي لذا لم أفهم العبارة من أول مرة.

وقادتني إلى غرفة نومي الجديدة، ولم أكن أعلم أنها قادتني إلى مستنقع أسن، هذا المستنقع الذي طالما تمنيت وأنا في السودان الغرق فيه، أشياء صورها لي عقلي المراهق حينها بأنها قمة اللذة، وجَسمَها فيه فراغ عاطفي وأسري كبيرين.

كانت الغرفة متواضعة، ولكنها مرتبة بعناية واضحة ونظيفة. سرير حديدي كبير، كأنه إحدى مخلفات جيش مهزوم هرب وترك بعض أمتعته في ثكناته، مما يزيد من هذا الإيحاء ملاءة بيضاء وبطانية صوفية داكنة وثقيلة، هذا مع صوان للملابس أبيض اللون أيضاً ومكتب صغير وكرسي خشبي قديم.

في فترات سابقة كانت تقوم بتأجير هذه الغرفة للطلاب بمقابل لتغطية نفقاتها وبنتها كما أعلمتني، ولكنها عرضت علي الإقامة مجاناً هذه المرة. وقد رفضت ذلك بإصرار وأعطيتها الأجرة كاملة برغم حاجتي لكل روبل معي .

حتى تلك اللحظة لم أعرف الغرض الحقيقي من عرضها السخي، وأن بضاعتها قد كسدت وقد تجد لها سوق رائجة عند هذا الوافد، جائع العينين.

دخلت علي أول مرة في غرفتي دون استئذان وأنا أتأهب للنوم وبين يدي كتاب لتعلم الروسية في أسبوع ـ وهل هناك لغة تكتسب خلال أسبوع؟ ـ كانت حروفه تتراقص أمام أعيني حيث كنت أغالب النوم.

بقميص نومها كانت ، ثمة شيء أحمر كالكرز يبدو من خلف الثوب الشفاف بين مفرقيها، لعله سروالها، حقيقة لم أتبين كنهه جيداً في تلك المرة، تجاهلت النظر تجاهها متشاغلاً بالقراءة...

في تهذيب مصطنع سألتني هل أريد شيئا قبل خلودها للنوم.

أجبتها بالنفي ، إيماءة بالرأس. فالمشهد كثيف الإيحاءات وأنا ما عندي تجربة ولا عندي زورق للنجاة...

خرجت في هدوء وأوصدت الباب خلفها في غير اقتناع بإجابتي الصامتة كما بدأ لي حينها.

هذه السيدة في عمر جدتي ، فلماذا تحاول إغوائي بهذه الطريقة الفجة. سؤال طالما سألته لنفسي مراراً في تلك اللحظة ولم أجد له إجابة حتى اليوم.

طرقت باب غرفتها ذات مرة لأشعل شمعة عقب انطفاء النور بالبيت. ودخلت الغرفة، على منضدتها كانت هناك شمعة تبدد ظلام المكان، بدأ ثوبها الشفاف منحسراً عنها وعن فخذين ممتلئتين، الترهل كان قد زحف عليهما وكساهما بغطاء لا يمكن إزالته بسهولة. لم تحاول أن تعدل من وضع ثوبها كأنها لا تراني.

اقتربت من المنضدة وأشعلت الشمعة وخرجت بسرعة كأنني أحاول محو الصورة التي تركزت في ذهني تلك اللحظات.

نادتني ذات مرة وهي في المطبخ لأجهز مائدة الغداء، ودخلت لأحضر الملاعق والصحون لأضعها على المائدة. وجدتها رافعة ثوبها أعلى من بطنها بصورة مقززة وكأنها تمسح أرضية المطبخ.

وخرجت وأعدت المائدة للغداء، و حضرت و تناولت العشاء سوياً في جلسة هادئة وكأن شيئاً لم يكن قبل قليل.

هذه المرأة فقدت كل أسباب الجمال والأغراء بفعل عوامل الزمن، ولكنها رغم ذلك واثقة من قدرتها وواثقة جداً من إيقاعي في حبائلها .

طوابي الطينية تتهاوى واحدة إثر أخرى ولن يقدر على الصمود الباقي منها، حدث ذلك من قبل في قرطبة وبغداد ودمشق وأم درمان ومواقع أخرى كثيرة لا يقوى ذهني المجهد في هذه اللحظات على تذكرها.

بيادقي الغرقى في دوائر الوهم لن تلبث أن تستسلم، ووزيري ابن العلقمي المهزوم عبر التاريخ سوف يضيف هزيمة جديدة يغبر بها ذاكرة الأجيال القادمة .وعقلي المحاط بأنهار الفودكا لم يعد الخطة بعد لاجتياز الجليد الروسي كسابقيه من الألمان وغيرهم.

البدايات غالباً ما تكون سهلة وميسرة وفي متناول أي كان ... ولكن النهايات دائماً تكون مجهولة العواقب، ومارفا ليوبوف المتحصنة بالبرد والجليد وأشياء أخرى وعت درس التاريخ إلا قليلا ...

ما أقصر نفس الإنسان عندما يتجرد من أي قيمة وقبل ذلك كل خبرات الحياة...

(١٢)

بعد كر وفر استمر عدة أيام وصلت غرفتها. كان الباب مواراباً وكأنها تجلس في انتظاري أنا القادم من متاهات التيه والضياع.

وجبيني يتصبب عرقا ومن حلق جفتا فيه كل ينابيع الحياء، طلبتها للنوم. وفي بردود تام ردتني وهي التي كانت تجلس كل تلك الأيام في انتظاري. معتذرة بأن في مفرقيها شعراً ريثما تزيله وهي في كل الأحوال ليست مستعدة للنوم الآن.

دون حياء تتكلم وكأنها تتحدث مع زوجها في حلال مطلق. إلى أي شريعة يحتكم أولئك القوم؟!.

وأنا ما عندي تجربة ولا عندي زوارق للنجاة...

و خرجت كالقائد المهزوم ...وأنا أشعر بذل السؤال ومهانة الرد بتلك الطريقة السمجة .

في تلك الليلة تمثلت لي مارفا اعفواناً يريد محاسبة البشرية على جملة أخطاء لم ترتكبها...

وأصبحت كالمنوم مغنطيسياً منقاداً لها بطريقة لا شعورية ، في الليلة التالية ذهبت لغرفتها ، في البداية لم أصدق ما رأته عيناي، عارية تماماً رافعة رجليها إلى أعلى بحركة بهلوانية. فخذان مترهلتان والبطن بطن ضفدع.

الشعر في مناطقها الحساسة كان أبيضاً، مجعداً من شدة كثافته، وفوق كل ذلك لم تحلقه كما ادعت في الليلة السابقة.

كادت الدنيا تميد بي، ولم أحس بعد ذلك بأي شيء...

لعن الله مارفا ليوبوف، ما تأخذه منك امرأة عجوز في مرة لا تستطيع نساء الأرض مجتمعة أخذه منك في عدة مرات.

استلمتني سماء موسكو الملبدة بالثلوج من سماء الخرطوم الصافية، فتى غريراً. مارفا ليوبوف عقب ليلة واحدة، حولتني

لرجل ذي خبرات هائلة، شيخ عربيد قضى حياته متنقلاً بين أفخاذ النساء.

وقمت منها وقدماي لا تقويان على حملي. وفي رأسي ثمة دوار خفيف كأنني ضاجعت مليون امرأة.

ما أسهل الروسية وما أبشع أن تضاجع كهلا.

أول ما قمت منها ، تبينت ما بين مفرقيها لم يكن اللون أحمر كالكرز كما تخيلته أول مرة، كان الشق مهترئاً مائلاً للسواد عكس بقية جسدها، كأنه أثار معركة طاحنة استنزفت فيها كثير من الدماء ولا تدري من فيها المنتصر من المهزوم.

وهرعت للحمام مذعورا وهي تنظر إلي في دهشة.

وداخل الحمام تقيأت في ذلك اليوم كما لم أتقيأ طوال حياتي السابقة أو حتى اللاحقة بعد أن غاصت قدماي في الوحل...

في تلك اللحظات وأنا بين بقايا ترجيع طعامي وازدراد أثمي قررت الرحيل من بيت مارفا وبلا عودة مهما كان الثمن. لكن القدر كان أسرع مني لتدخل في حياتي فيرا ...

(١٣)

لا أدري لماذا حتى اللحظة يصر عقلي النزق في موسكو استحضار اللحظات الأخيرة من حياة بنت محمود؟.

حي ووووب

حي وووووووب

حي ووووووووووب

هذه الكلمات ما زالت تطن في رأسي ـ من ألسنة كل النسوة اللائي حضرن وفاتها ـ حتى اليوم وأنا في قمة عربدتي...

حاجة فاطنة ليلة وفاتها، عادت كما كانت فتاة ابنة عشرين. وجهها أصبح مشرقاً بصورة تدعو للدهشة ، عاد إليها جمالها السابق الذي أخذته منها السنون بما لا طاقة لها به من مصائب أناخت عليها بكلكلها وكل من حولها، وأولهم أنا و الذي احتملت في سبيل تربيتي وتعليمي ما احتملت من نوائب الدهر تلك.

رجعت باسمة الثغر وضاحة المُحيا بذلك الوجه الراضي دوماً بقضاء الله وقدره، فطوال عمري لم أر من هو في مثل تماسكها وقدرتها على التحمل حتى من الرجال.

النسوة اللائي قمن بغسلها أقسمن بأن رائحة المسك كانت تفوح من كل أجزاء جسمها ، فمها بالذات. ذلك الفم الذي لم يكن ينطق إلا بمعاني الحق والفضيلة.

كانت أقصى أمنيات الحاجة فاطنة، سعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً وحجاً مبرورا. ومع ذلك كان الكل يناديها وأنا أولهم تحقيقاً لهذه الأمنية التي لم تعرف لواقعها طريقاً، بالحاجة.

قبل أيام من وفاتها، هي على عنقريبها قصير الأرجل ،وأنا على سجادتي عقب صلاة العصر..

تعطلت لغة الكلام وجرى الدمع مجاري السيل، وكأنما سرى دمعي مني إليها فرأيتها تبكي كما لم تبك من قبل...

وكأنها كانت تعلم أنها على موعد مع الرحيل ، وكأنما كنت أعلم مسبقاً بأنها جلستنا الأخيرة مع بعضنا البعض...

وفي المقابر لحظات دفنها رأينا العجب العجاب...

قبرها كان هشاً لينا. أقسم الجبانة الذين قاموا بحفره أن معاولهم كانت وكأنها تغوص في أرض مبلولة بالماء، وبما لم يعهدوه من قبل حتى في قبور المشايخ و الصالحين.

و... و... ورب السموات والأرض بعد دفن جثمانها مباشرة نزلت مطرة خفيفة، برائحة مميزة لم نعدها من قبل وكأنها نسمة هبت من نسائم الجنة التي حكى عنها ربنا الأكرم في محكما تنزيله، رزاز طالما أتخيله في هذه اللحظات يد حانية هدهدت الروح الآمنة المطمئنة ...

و مارفا ليوبوف زائرتي الليلية بانتظام ، ليلة لا تأتي أعرف أن شخصاً آخر غيري زارها في الصباح أثناء غيابي.

الأماكن الرطبة اللزجة تنبؤك إن كان زائر سبقك إليها .

أحن إلى الشقراوات زرق العيون ، والسمراوات شديدي سوادها، المنطرحات على الجليد اللائي لم يذقن طيب لياليه عز الصيف، والمنغرسات في الطمي اللائي لم يذقن حلاوة لياليه شتاء.

كل له طعم خاص ورائحة مميزة

فاطنة بت محمود كلما أقم من صينية الطعام مبكراً ، كانت تتساءل ما أكلت الليلة كتيرا كعادتك ، عيان ولا شنو؟.

أرد عليها في كل مرة ضاحك : السمح ما أكال

تشرق بالضحك ، ما كده قاصدين يا عوير

السمح مُو أكال

كل فوله وليها كيال، وأنا الكيال الذي يشتهي كل أنواع الفول ...

صحيح على رأي فاطنة بت محمود ، السمح مُو أكال.

(١٤)

وفي بيت مارفا ليوبوف وخارجه في مدينة موسكو تعرفت على عدد كبير من زائراتها بانتظام...

سونتا ليم ، مجرية، ملحدة. متزوجة من عالم أجناس روسي يؤمن بضرورة تحسين النسل، ومفتون بالقبائل التي ما زالت على فحولتها الأولى.

تتضجر من كل ما حولها ، تتفنن في سب كل شيء، كما تسب الرأسمالية وبحرارة. وتظن معتقدة بأن الرأسمالية وأنا أفاتا الدنيا .

ليلة دخلت معها الغرفة، خلعت قميصي متعللاً بحرارة الجو مع أنه كان شديد البرودة، علها تفعل مثليا.

غالباً ما نعبر عن رغباتنا غير المشروعة بطرق ملتوية مثل تلك.

عندما لاحظت عدم تحمسها لخلع أي قطعة، في وقاحة باحت بحاجاتها الفموية ، وأخذت تلعقني ككلب لاهث يقتله الظمأ ...

حينما انتابتني الحالة ، ورميت بماء الحياة ، مجته في البداية خارج فمها ، ثم أخذت تجتره وتمصه بلذة من يمتص كأسه الأخير. وعبرت في وضوح بأن ذلك خير علاج لأدوائها المعدية...

كانت تعاني من سرطان في المعدة...

(١٥)

سالي برهام ، مسلمة من بلاد القوقاز ... قابلتها في إحدى الحدائق... ولم تأخذ في يدي سوى دقائق معدودة، وساكنتها حيث التقيتها.

المرأة حين تخرج من ثوب حيائها ، يمكن مساكنتها حتى في قارعة الطريق العام.

حين قدتها إلى منزل مارفا، كان ذلك أول يوم في شهر رمضان. أجمل شهور العبادة بالنسبة لي فيما سبق.

في ليلة مباركة مثل تلك، تجردنا من كل قيمنا. وفعلت بها كما لم أفعل من قبل...

الغريب أن سالي برهام عقب كل مساكنه كنا نقوم بها ، بعدها تغتسل وتصلي في خشوع، برغم كل مُماحكات البلشفية الدينية في تلك الفترة . وهي من بين كل الآثام التي ترتكبها كانت شديدة الاعتقاد بأن كل شيء براه ، له طريقا له سكة .

فهناك رب غفور رحيم.

سالي برهام ومن عجب لفتت انتباهي إلى أنني ومنذ وطئت قدماي أرض موسكو لم أصلِ وأسجد لله ولو سجدة واحدة، وحسبت أنا وهي فوجدت قد فاتتني ثمانمائة وألف صلاة بالتمام و الكمال.

سالي برهام ومن عجب في مرات كثيرة كانت تتبحر في معاني ومعالم القرآن وهي الأعجمية شديدة العُجمة، وهي أول من أعلمتني ببعض أسرار الأرقام في الكتاب الكريم، وأن بسم الله الرحمن الرحيم مكونة من تسعة عشر حرفاً .

بسم ثلاثة أحرف، والله من أربعة حروف ، والرحمن الرحيم ، اثني عشر حرفاً ، ست لكل.

وهي أول من لفت نظري إلى أن نسبة بسم إلى الرحمن الرحيم هي نسبة ٣:١٢ وهي تساوي ١:٤ وهو ما يعني أن الله واحد في كل الجهات الأربع...

لسالي برهام فلسفة خاصة في شأن العبادة، ما أعجبني فيها حقاً يقين ثابت بأن الله يوم القيامة سوف يغفر لنا كل خطايانا صغيرها وكبيرها...

أصرت سالي في مرحلة من مراحل علاقتنا أن أتزوج بها كي نحلل هذه العلاقة وفقاً لما يعتقد كلانا.

تعللت من باب داخلني به شيطاني، أن أهلي فقراء وأن والدها أحد أثرياء هذه الديار .

أصرت أننا بنو البشر كلنا في نهاية الأمر فقراء بصورة نسبية في هذه الأرض وفقراء إلى الله في كل الأحوال...

على كل دائماً ما كانت تدعوني للرحيل من منزل مارفا والذهاب معها لمنزلها بشرط واحد، أن تكون العلاقة شرعيا ...

إحدى الليالي طلبت من سالي برهام أن ترقص أمامي عارية من كل شيء، كتلة من المرمر، اللهب والجوع.

عقلي الباطن أخذ في عقد مقارنة ظالمة بين هذه الراقصة على خدر القلوب ومارفا الراقصة على حافة القبر ...

أخذت أصيح ثملاً يا صنمي المصنوع من اللذات...

سالي برهام وبمثل تلك الجاذبية الطاغية ، كانت صنماً عبده كثير غيري في تلك الفترة، وقدتها إلى نفس السرير الذي ساكنت فيه مارفا النصرانية وسونتا ليم المُلحدة.

نحن عندما نفقد مبادئنا وقيمنا ، نصير سواسية ، نحِن لأصلنا الدوني ...

وكأني أتخيل مارفا ليوبوف ، تغير من ابنتها، لم تغير عندما قدت سونتا ليم وسالي برهام لغرفتي ، النساء المنحرفات لا يغرن من بعضهن ويتمنين أن تغمس رجل كل امرأة طاهرة في الوحل معهن...

أخاف في مثل هذه الأوقات ، الانفراد بنفسي.

ضميري اللوام سوف يقتلني تأنيب...

أغرق نفسي في جدل لا طائل منه مع مارفا أو غيرها من زائراتي بانتظام.

ليلة أتكلم كثيراً في الفارغ والمليان، يعني هذا عدم رضاء الذات وأن النفس اللوامة تقوم بدورها على أفضل وجه.

في أوقات مثل تلك أهرب بالكلمات الزائدة غير المجدية، من وخز ضميري المستيقظ دوماً ...

متى يا ربي تنقذني من هذه الهوة السحيقة التي أتردى فيها كل يوم؟. فإغراء المال و البنين شديد يا ولدي، وأنا لا أملك مالاً ولا جاها . كل ما أملكه لساناً فاعلاً يروق لكل النساء، هذا ما أعتقد أنا قد يكون لهن رأي آخر. ورائحة عرق منفرة تروق لنوعية معينة منهن ...

(١٦)

الإشارات وكل معلقاتها ، ترمي بظلال كثيفة على حياتي ، هل هذا هو زمن اغتيال الأحلام البريئة وغيرها؟...

وتضحك من غفلتي سالي برهام حتى تغرغر ، لماذا تتغنى بهذه الطريقة الكوميدية الأقرب لأنكر الأصوات مع أنك تمتلك صوتاً عذباً رجولياً و مبحوحا؟.

من يقول لتلك الغلفاء، النصف مُسلمة شعائرياً كما أعتقد. إنني أكون في قمة تراجيديتي يا فيرا ، حينما أغني لك وحدك أنت دون نساء العالمين كافة، حنيني إليك وليل الغربة يقتلانني .

جلست قبالة سالي برهام ذات يوم وهي تستمع لموسيقى تشوفسكي وفي عينيها مرح طاغٍ.

حولها أجلس وأفكار مضطربة وسيلاناً ربما أصابني من آخر مساكنة مع مارفا، فهي في تلك الفترة كانت مشاعة ومبذولة، وربما التقطته هي الأخرى بدورها من أحد شيوخ أو صبية موسكو ، وعلى الرغم من كل ذلك كنت أستمر في مساكنتها في رغبة جادة لتدميرها وتدميري وهموم جيل محبط بأثره...

وسألوه ماذا أصاب فكرك؟

قال إني مريض

وأشار إلى هنا وهنا وهنا، قلبه وعقله و .. .

ودخلت بعدها يوماً الحمام، كنت مصاباً باحتقان شديد في البول. رائحة المكان خليط من رائحة صابون طبي وبراز ناتج عن

إمساك مزمن، لماذا في تلك اللحظة تخيلت مارفا كقطة تتبرز وتدفنه خلف رائحة الصابون الطبي تلك ...

في يوم آخر وفي أحد أيامي الفريدة النادرة شديدة الصفاء مع سالي برهام وأيضاً مصاب باحتقان شديد، جلسنا قبالة البحر الأسود.

في رماله الشاطئ الناعمة، فاتحاً أرجلي واقفاً ودفنت ما أفرغته من ماء. ما خطر بعقلي المريض حينها، كان من نفسي منذ مدة طويلة أن أهين قبل أي شيء ، عملاقا كهذا!.

ومع ذلك ، مع ذلك .سالي برهام وهي الآثمة حاولت أن تقودني للطريق القويم ، من هنا حيث أبدأ البداية الصحيحة زواج حتى وإن كان من نصف مسلمة حسبما أعتقد...

ولكنني اخترت بمحض إرادتي طريق تحطم أمالي ، وازدواجية مصيري.

فإلى متى تستمر يا أحمد سالم في حياتك دورة عدم الحسم هذه، دورة اللا والنعم، وأيضاً دورة الحق والباطل ...

كل النواقص في، أنا صنيعة جزر الوهم السراب، ما أستحق العيش من عرف عيوب غيره وتناسى نقائص نفسه...

الباطل المطلق ، لا يمكن أن ينتصر على الحق المطلق ، ولأنني عبر التاريخ ، كنت بعض الحق وبعض الباطل انتصر علي مارفا ليوبوف وأمثالها ...

العالم بكل عبثه ، نفاقه الاجتماعي وخياناته ومآسيه كان مرفوضاً بالنسبة لي ... ولكن متى تأتي دورة الحسم في حياتك يا أحمد سالم ؟.

وهل طلب الخلاص في هذه الدنيا وبأي شكل يعد جريمة؟، حتى ولو كان ذلك من خلال الارتباط بعقد شرعي مع سالي برهام تحلله الأديان كافة...

(١٧)

وفي منزل مارفا تعرفت أيضاً ضمن من تعرفت على مسز كلارا شينوف ، توفي زوجها أثناء إحدى الحروب الروسية التي تتم بالوكالة، وخلف لها طفلة جميلة تدعى فلورنت ، في العاشرة من عمرها.

كانت كلارا من ذلك النوع غير المغري من النساء، غير المشتهى. بنحافة زائدة عن الحد، ولكنها رغم ذلك كانت تتمتع بجاذبية من نوع خاص، جاذبية الأنثى الملساء الأفعى بأناقة هادية، غير متكلفة.

حقيقة لم تدخل في نفسي رغم أنني الكيال الذي يشتهي كل أنواع الفول ، لم أساكنها، لا توجد امرأة غير قابلة للإغواء والمساكنة، قراءة شيطانية . ولكني ربما احترمت فيها وفاءها لزوجها، أظنه قصة حبها الوحيد... نساء مثل تلك قلائل في أوروبا بشقيها الشرقي والغربي، ثم إنني أحببت صغيرتها فلورنت التي رأيت من خلال عينيها عالمي الطاهر المفقود.

سرعان ما نشأ بيني وبين تلك الطفلة حسبما أتذكر جيداً في هذه اللحظة، حبا ملائكيا من نوع خاص، من هذا الذي يستحيل وجوده في هذه الدنيا، فهي الوحيدة التي جلست على فخذي ولم أشعر بذلك الإحساس المبهم الذي تضخم منذ أن جئت إلى روسيا، وأظنها الوحيدة التي عبثت بشعر صدري دون الإحساس بأي لذة دونية من تلك التي تكبل أهل الأرض.

حينما رأتني لأول مرة انزلقت من رجل أمها وأخذت تلعب بأظافر رجلي حلفت أمها بأن ذلك يحدث لأول مرة في حياتها، فقد كانت تنفر من كل البشر ، وتشعر بينهم بالعزلة وعدم الالفة،

وخصوصاً الغرباء منهم والذين أصبحوا يغزون روسيا من كل حدب وصوب تحت شعارات الشيوعية الجوفاء...

أضحت فلورنت تضحك كلما ترني في براءة غير مفتعلة، وتتعلق برقبتي وتلعب بشعري...

إحساس فظيع بالمرارة ينتابني، ونفور شديد ممن حولي، ووسط كل هذا الزخم المارفوبولي لم أجد من أتجاوب معه وبصدق إلا فلورنت ...

فلورنت ولدت خرساء... ونشأ بيننا حب من نوع غريب، حب دون كلام ... فلورنت مثلت لي في تلك الفترة عالماً من النقاء أفتقده وبشدة ، عالما بلا أخطاء ، عالم طالما أثقلته مارفا وأمثالها ...

حيث فلورنت هي إطلالة الفرح الوحيدة في حياتي الميئوس منها، وسالم مهدي العصا التي طالما حلمت بأن أتوكأ عليها ضد ضروب الزمن وأنش بها أهوال الحياة ...

العيد قد جاء يطلبكم ، لكنه لم يزرنِ فاذكروني يا أحبة...

أذكريني يا فلورنت إطلالة الفرح الوحيد...

نحاول إمتاع أنفسنا بشراء أنواع من الحلوى والبسكويت، الفرح الابتدائي ، لنشبع طفولة مفقودة لكلينا أنا وفلورنت ...

ما جدوى البناء يا أبي إن كان غيرك لم يتعلم كيف يبني؟، وما جدوى الخلق والإبداع في عالم فقد معايير الإحساس بهما.
فلتمتلئ يا شعر عانتي بإفرازات مارفا ليوبوف الكريهة، بعض العفن الذي استشرى في حياتنا وصار غول سرطان مخيف يهدد كل شيء بالفناء وبالزوال ...

(١٨)

بداخلي كانت بركة أحزانا لانهائية، حزن للا شيء. دوائر الفرح الصغيرة في داخلي تقوم، ثم لا تلبث تنزاح وسط دوائر أحزان حياتي الكبرى.

أحزن ، لا أدري لماذا أحزن؟. لا لم يكن بداخلي بركة أحزان بل محيط أحزان ، مداخل الفرح فيها نقاط صغيرة وسط تلاطمه المخيف المزعج، وهكذا الحياة...

زاد من اتساع دائرة أحزاني السرمدية، الثقب الأسود العدمي الذي يطوقنا، وفاة بت محمود، كان حزني عليها أكبر من أن تصفه الكلمات، لا ينقص منه إلا الدهشة مما قالته من كلام زلزل كياني وهد قواي بقية حياتي ومع ذلك يخرج من فمها هادئاً مطمئناً رغماً عنها فقد أحست قرب نهايتها. فلماذا أخفت عني وهي الصادقة، الحقيقة كل تلك الفترة.

أكثر من عشرين عاماً تركتني نهباً للفراغ وضياع أيامي...

هذه الأيام التي كنت أتغنى فيها قبل أن أعرف الحقيقة، بأنها ما هدت قواي ولا ظهري مع الريح انحنى ، لكنها اليوم تجلس على كاهلي مادة لسانها ضاحكة من موتى الغفلة.

المسبحة دارت وسوف تكر، وكلام الحاجة فاطنة يطن في أذني ، وأنا حين أحاول تذكر وجه أبي كأنني أطارد سراب لا وجود له. أو حين أحاول تذكر وجه أمي كأنني أنظر في هوة لا قرار لها.

وكل يوم حين أساكن مارفا ليوبوف وأقوم منها وقدماي لا تقويان على حملي، العن اليوم الذي حملني إلى تلك البيئة القذرة فأي يوم

عشته بينكم في موسكو أنا نادم عليه وأي يوم أضعته في البحث عن سالم مهدي يجب ألا يحسب ضمن أيام حياتي .

في بلادكم سادتي وهنا حيث يتراكم الجليد ، حيث الطبيعة تحاصر كل شيء كما حاصرت جيوش هتلر وهزمتهم شر هزيمة. تلمس بعينيك أنها قادرة على خنق ينابيع الحياة في كل ما يحيط بك من مظاهرها، ويذوب الجليد ولكن يبقى منه شيء ما حتمي يجعل النفوس صدئة باردة، حتى دخلت حياتي فيرا ...

أو تذكر ذاك اليوم جيداً، أو لا تذكر لا يهم هذا كثيراً، يوما تناءت بك الخطى ، يوم تهللت عندما تخيلت حملها بيديك هاتين.

وتزدحم بعينيك الأشياء الفراغ، بالصبح حين تصطخب الأحداث لا تنفر منها، بالليل حين تسكن تشتاق إليها...

أي شيء فيك يا فيرا حير البشر.

حب وعدم استقرار لا يتأتيان ، ارحموني يا عباد...

أي قلق يضربك حين يمر طيفها ، أي هم وارتياح، وجودك معي في نفس المكان ، نفس الحيز يريحني، وهل تأتي برغم الحضور الكثيف، الغياب. هو ما يبعث كل كوامن همومي؟.

همومي أضحت رفيقتي، عندما عز الرفيق. فكوني لي الصديقة يا فيرا، أنقذيني من هذا الجحيم...

فيرا الوهم والحقيقة، الحقيقة بمقدار ما يوجد في الأرض من سعادة. والوهم بمقدار ما يوجد فيها من عذاب، هذه الأرض التي ما أظنها خلقت يوماً لغير العذاب ولحظات السعادة التي نحسها فيها ما هي إلا سراب مخادع يظهر لنا بقيعة حتى نأسي أنفسنا بالشراب ثم لا يلبث يذهب بعيداً ليزداد الظمأ.

هو وهم اخترعناه لتخفيف غلواء الحياة، ولم ندر أننا خلقنا غولاً صعبا الوصال، يزيد جذوة عذابنا بتمنعه غير المبرر.

فيرا ... كانت امتداداً للطبيعة البشرية بكل خيرها وشرها. نتاج أب وأم هي لم تخترهم في كل الأحوال. أو بالأحرى هي نتاج عملية مساكنه تمت لحظة شهوة عارمة بين رجل وامرأة ، أياً كانت تلك المرأة وأياً كان ذلك الرجل.

فنحن في النهاية خلاصة شهوة حيوانية، ارتكبها اثنان في لحظة ما لا يهمهما في غالب الأحوال خلالها سوى جني متعة قليلة ومحدودة بحدود تلك اللحظات. ولا يدري كلاهما أنه قد تكون نتاج تلك اللحظات أجنة أديم الأرض الذين يتجرعون بعد ذلك كؤوس الألم المترعة قسوتها طوال الحياة كأساً بعد كأس، كانت تلك المتعة بالحلال أم الحرام ، ففي مثل تلك الديار الأمر سيان. نحن غالباً نتاج وضع إجباري ...

فيرا من لا أدري ؟ . أو فيرا أي شيء آخر لا يهم. فما هي التي اختارته أباً لها ولا هو اختارها ابنة له، كان هو ككل الرجال في تلك اللحظة يلبي رغبة عارمة اجتاحته، ولو هو لم يلب تلك الرغبة، لباها غيره. وأقتنص اللذة التي تشعر بها كل نساء الأرض في لحظة ما، وساكن مارفا ليوبوف وكانت هي أيضاً فيرا أي شيء آخر.

لم تكن مشكلة فيرا أو أنا سوى قدومنا لهذه الأرض الخراب ...

ما طاولت يداي سماء فيرا ... ولا وطئت قدماي أرض سالي برهام يوم دعتني للزواج منها...

هكذا كان وضعي دائماً معلقاً بين الأشياء، الإشارات...

ليلة قلت لمارفا إنني أملك قدرة خاصة على تجريد المواقف وبصورة مؤلمة.

أجابتني بما أفحمني حقيقة، بأن حساسيتي المفرطة تجاه الأحداث غالباً ما يجعلني خارج دائرتها ...

وسالم مهدي كان يريد السيطرة على مجريات حياتي حتى بعد وفاته خلال حبسي في دائرة من الأوهام، وذلك ضد منطق الحياة...

سالم مهدي الهارب دوماً لم يكن إلا دوراً ثانوياً في مسرحية حياتي العبثية رغم أنه لعب دوره بحذق يحسد عليه.

الغريب أن سالم مهدي كان على قناعة تامة بأن هذه الحياة عبارة عن مسرحية هزلية الممثل الخالد فيها من يؤدي دوراً قصيراً ومؤثراً . ولكنه رغم ذلك أدى دوراً طويلاً ومملاً استمر حتى بعد وفاته بسنوات، دليلاً آخر على أننا بنو البشر لا نتجرأ على قول كامل الحقيقة حال حياتنا ...

على كل مارفا ليوبوف وسالم مهدي وسونتا ليم وغيرهم لم يكونوا سوى ينابيع صغيرة من الشك والتمرد في مسيرتي ، بجانب ذلك النهر العظيم من اليقين الذي تمثله في حياتي الحاجة فاطنة بت محمود.

فكلما أفكر في أفعالي في هذه الحياة ، وهل أنا مذنب لدرجة عدم المغفرة من رب العالمين؟. حتى تقع علي كل هذه المصائب المتتالية ...

يأتيني صوت ألا تخاف ولا تحزن... فإن كان كل ما خرجت به من هذه الفانية ، هذا القلب الكبير ، هذا القلب القادر أن يغفر حتى

أخطاء سالم مهدي التي لا تغتفر ، لكفاك هذا في موازين كثيرة يوم يقوم الأشهاد...

منطق الحياة يؤكد بأن كل أمة مفسدة، بينها مصلحون.

وأنه بينما تشرق شمس من هنا تغرب من هناك

فمهلاً يا ليل حياتي البارد

فاليوم حتماً تحت ضربات قدري الاستوائي

ترحل ثلوجي الغاربة ...

(١٩)

قد تتمثل لب مشكلتنا نزولنا لهذه الأرض الخراب...

أي أرض كانت، لنتجرع نصيبنا من العذاب. فكما أتخيل نحن معشر البشر لكل منا كأس مرارات لا بد من تجرعها حتى الثمالة، وحتى آخر يوم في حياتنا. قد تختلف الجرعات وأوقات التناول ، لكن حتماً تتساوى المقادير.

أكثر من عقدين ، وأنا أظن أن أبي وأمي ماتا ليلة السيل مع المئات الذين أخذتهم المياه في تلك الليلة. ليلة السيل لم تكن ليلة وفاة سالم مهدي بل كانت ليلة مولده. ووالدتي ماتت في الليلة التي وضعتني فيها.

سالم مهدي فر لروسيا قبل أن يحضر ميلادي. هذا الهروب الكبير الذي جعلني بدوري لا أحتمل المواجهات طوال حياتي ، أتهرب من كل ما ينزل من عوارض الدنيا.

هذا الهروب عينه الذي كانت تتكسر أشرعته في أحيان كثيرة على أرض الواقع المر.

أحلامي كانت تتلاشى... تتسرب مني تسرب الماء في أرض رملية، نهار صيف قائظ بأرض صحراوية أصابها الجدب عدداً لا يحصى من السنين.

وقبل ذلك في عام ١٩٦٠م، وهو نفس العام الذي ولدت فيه سافر سالم مهدي لنيل درجة الدكتوراه في أي علم لا أعرف ، وبعد ذلك لم يعودوا يسمعون عنه شيئا، انقطعت أخباره.

(٢٠)

جمعت أغراضي من غرفة مارفا ليوبوف النتنة وحزمت حقيبتي ، لأغادر البيت للأبد كما قررت سابقاً ، فداخلية الجامعة كانت قد فتحت أبوابها للطلاب الدارسين في كل الأحوال.

وأنا أودع غرفة آثامي الكبيرة وأخرج منها غير مأسوف عليها ، حدث ما جعلني أغير وجهتي في الحال.

فقد كان في الخارج جلبة غير معتادة أحدثها قدوم الصبية القادمة من معهد الباليه العالي بموسكو.

وجدتها متعلقة برقبة أمها ، الفستان انحسر قليلاً عن ساقين ملفوفتين في نظام بديع. قبلاتها كما بدت لي في لحظة مثل تلك متلهفة في شوق زائد . ازدرت ريقي كعادتي في هكذا مواقف مؤثرة وأصابني ارتباك مفاجئ ولم أدر ما فعلت بعدها سوى أنني قذفت حقيبتي داخل الغرفة، وعدت بسرعة خارجها ومن حسن حظي أو سوئه لا أدري لم يلحظ أحد كل ذلك.

طلبت أمها منها أن تحييني، بعد ما عرفتني

أحمد سالم، مبعوث للدراسة بجامعة لومبا ـ جامعة مخصصة في زمن المد، الحلم الشيوعي لتدريب طلبة دول العالم الثالث من أفريقيا وآسيا ، الذين كانوا يعدون كقادة للمستقبل في بلادهم ـ في موسكو.

فيرا، ابنتي التي طالما حدثتك عنها ، طالبة تدرس بالمعهد العالي للباليه. لها اهتمامات منذ طفولتها بمثل هذه الأشياء. ليتها تولت في دراستها ما هو أكثر أهمية من هذا الترف.

لم أعلق على كلامها الفظ، فما يهمني أخيراً أني قد وجدتها، وجدت حلمي الذي طالما بحثت عنه ولم أفق يوماً على ندائه، السراب الذي كانت أطارده في يقظتي، وما تفتق بصري اللحاق به سائر عمري.

في العشرينيات من عمرها تأكيداً، كنت أكبرها بحوالي الخمس سنوات تقريباً أو هكذا بدأ الأمر لي في حينها. الجسد شهواني كل شيء فيه يدعوك الدخول بمحيطه وللأبد. صدر مليء بارز، عجزا ممتلئا و خصرا يافعا. شهوانية سرعان ما تبدد إذا نظرت الوجه.

وجهاً طفولياً شديد الهدوء. على مخايله حياء لا تعرف مثيله فتيات أوروبا بشقيها الشرقي أو الغربي.

كانت فيرا مزيجاً غريباً لملامح أفروعربية وأوروبية.

الجسد يدعوك لكن الوجه يصدك.

كل شيء في جسدها يدعو للأغراء ، وإن نظرت الوجه، حل محله إعجاب ممزوج بالاحترام.

لماذا لا أدرى لحظة شاهدتها كأنني أعرفها من قبل، الوجه كان مألوفاً رغم أنني أول مرة أراها فيها.

أمرت مارفا ليوبوف ابنتها أن تحمل حقيبتها لغرفتها. وانسلتا مخلفتاني للصالة وحيرتي وأشياء أخرى ...

كانت غرفة فيرا بجوار غرفة أمها.

وعاد ذهني للوراء ليلة أتت مارفا غرفتي وهي ترقص في حركات بهلوانية. الآن عرفت السر . حينها أخبرتني بفرح طفولي

لم أعهده فيها. أن ابنتها قد أرسلت ما يفيد بأنها سوف تعود من الداخلية لتقيم معها في إجازة نصف العام.

العلاقة في ذلك الحين كانت بيننا في أسوأ الأحوال. وهي بذلك تريد إغوائي بالبقاء فترة أخرى ، فإن لم يكن من أجلها فلآجل ابنتها على الأقل.

لعنت في سري تلك اللحظة شيطانها، فهذه القارة العجوز تستعمل كل الأساليب المشروعة وغير المشروعة، للإبقاء علي أنا رمز الفحولة الذي ما زال على بكارته.

أتذكر حينما كنت تتحدث عنها بكل فضائحها فيقمعك صوت ضميرك المرتفع دوماً، وتظل تبحث عن الحب فلا تجد، وأنت تأكل إذ تجوع، وأنت تنفق ما تجود به الأيام.

وسألوها ما عيب الوردة؟.

قالت إنها ذكية الرائحة...

فارحميني من جنوني يا مارفا...

مارفا ليوبوف كانت مستعدة لمساكنة طوب الأرض في سبيل إذلال من تحب، فعلتها مع سالم مهدي، ولكن أصل مأساتي معها ، أنني لم أحبها في يوم من الأيام، بالعكس حبها قضى علي.

ثم أنه لا يهمني مع من تنام في هذه اللحظة.

في تلك الليلة نفسها وقبل أن تحضر بنتها للبيت ، لم أعرف مبعث التغييرات الفجائية التي انتابتني بعد كلامها. طلبت من مارفا زجاجة خمر وجلسنا نحتسيها معاً. ثم قلت لها أن ترقص عارية أمامي. خلعت حتى ورقة التوت ورقصت كما لم ترقص من قبل. أخذت الخمر تلعب برأسي وأنا أصيح أيتها الراقصة على سلافة

قلبي ، ومن فمي تصدر صيحات إعجاب ما كان لها أن تصدر مني لولا الخمر لعنها الله.

وهي أمامي تتمايل في حركات ماجنة. كتلة من الدهن الأبيض اللزج. للحظات انتابني صحو من أين أتى لا أدري؟. ونظرت للمشهد بعين أخرى ، كدت أصحيح معها توقفي أيتها الراقصة على حافة القبر، لولا حياء قليل لم تذهب به الخمر.

في تلك الليلة ركعت مارفا ليوفوف عند أقدامي، وطلبت مني في ضراعة أن ما جرى بيننا يجب أن يظل طي الخفاء وألا تعلم به ابنتها بأي صورة من الصور ومهما كانت الظروف. وأن نتجنب أي شيء في وجودها حتى التلميحات.

والخمر تلعب برأسي، أقسمت لها بأن ابنتها لن تعلم أي شيء دار بيننا في غيابها.

تلك أول مرة كانت أحلف فيها بالله منذ أن وطئت أقدامي أرض موسكو...

الحقيقة التي لا بد من المجاهرة بها أن التجربة السوفيتية بعد ما يقارب العقود على قيامها، تستحق الالتفات، لو حاول أهل التنظير تلافي الأخطاء التي نتجت من جراء تطبيق نظرية أول ما حاربته الأديان السماوية التي أنزلها رب العالمين على عباده، فهل توجد نظرية تصمد أمام قوة وجبروت الله؟!.

فالدولة الشيوعية التي نشأت عملاقة أعقاب الحرب العالمية الثانية والتي جاءت كأحد قطبي العالم .كانت كديناصور عملاق ولكن برأس صغير لذلك لن تصمد طويلاً وحتماً سوف تؤول للانقراض ...

في التجربة السوفيتية ، على حساب الحرية الفردية المطلقة، جاءت ديكتاتورية الطبقة العاملة. وعلى حساب الرفاهية الاقتصادية، نشأت ترسانة الأسلحة النووية الضخمة .فالمجتمع الذي ظل يحارب القيصرية ولمدة طويلة لم يستفد كثير من تجربته الثورية وإنما أتى بقيصرية جديدة، تتمسح هذه المرة بثوب الماركسية في ظل تغييب معطيات أسياسية كان يجب أن يقوم عليها المجتمع الجديد.

إن التقدمية والديمقراطية والاشتراكية التي كان ينادى بها ضمن إطار الاتحاد السوفييتي كانت حسب المفاهيم الماركسية المحضة.

والديمقراطية ببلادكم يا مارفا قاتلتي الجديدة لا تتجاوز حدودا معينة لا يسمح بتخطيها من خلال قبضة حديدية، وحيث الكل ببلادكم يبحث عن قيم فردية متحررة، أمام عالم تحكمت فيه الجماعة وأصبح كل فرد ترس في آلة الدولة الضخمة، هي حلم ينشده الجميع فيه وفرة ورخاء ووجود لعزف فردي مفقود...

وهو ما يعزز مقولة أن البدايات قد تكون إرهاصات لشكل النهاية ، وهو ما لم يعه الروس بصورة أو أخرى حينما استبدلوا القيصرية ـ وذبحوا نيكولاس الثاني وعائلته الذين رحلوا على يد الثورة البلشفية في مذبحة شهيرة لم تنج منها إلا ابنته انستازيا الابنة الصغرى والتي لم يعرف لها مصير حتى اللحظة ـ بالقيصرية الجديدة مع الفارق طبعاً .

وبين حرية فردية مطلقة وديكتاتورية طبقة عاملة، ألا تأتي الرسالة الخاتمة كحل وسط مقبول بين نقيضين في عالم يبحث عن سبل للتعايش السلمي ؟...

لكني بعيد عن كل هذه النظريات المُغلفة بالشعارات البراقة أحببت فيرا .

كل شيء سيدركه البلى، عوامل التعرية والنسيان، لا شيء يبقى على مر الزمن، فوق الماضي ...

لكنك يا فير حالة خاصة، تظل شاخصة في ذهني ما دام هناك عرق ينبض داخل هذا الجسد. وإن توقف هذا النبض لأي سبب خارج عن إرادتي ، ظللت أبحث عنك بين أشلائه .

فإن لم أجد الإجابة ولا حتى صدى السؤال ، ظللت أبحث عنك بين توقع أن يرجع الصدى أو انتظار الإجابة ...

ومع ذلك سأظل أطاردك يا سالم مهدي، أيها السراب اللانهائي، حتى الرمق الأخير.

(٢١)

مرت عدة أيام منذ قدوم فيرا لبيت والدتها. نشأت بيننا قصة حب فريدة، حب صامت لا يدري كلانا مبعثه، حب من النوع الذي تلمسه من نظرات العيون، والاهتمام الداخلي غير الظاهر المخفي بين الضلوع. وهو حب شبيه بالذي طوقتني به فلورنت الصغيرة من قبل.

لم يكن بيننا سوى تحيتي الصباح والمساء، في الغالب ما نتناول طعام الغداء سوياً دون كلمات. وعند المساء وحينما تجلس مارفا تمارس هوايتها في تطريز الملابس، أخيراً وجدت لها عملاً سواي. أمارس أنا هواية التلصص على وجه فيرا الملائكي وهي غالباً تمسك بكتاب تتشاغل به عني وعن كل ما حولها.

وعلى يديها الحريريتين شديدتي الرقة والنعومة رأيت لأول مرة روائع الأدب الروسي، آنا كارنيننا ، الحرب والسلام لتلستوي وأبله ديستوفسكي . كانت تتمتع بحاسة أدبية راقية وهي التي أشعلت فيما بعد شرارة اهتمامي الأدبي الأولى في الشعر والرواية والموسيقى والباليه وما شابه من آداب وفنون كنت أجهل عنها الكثير حتى التقيتها...

يحدث العكس عندما أكون متشاغلاً بقراءة بعض كتبي الجامعية، وبعيون تحاول اهتمامها بما بين يديها، الحظ نظرات فيرا المختلسة تجاهي وهي تذوب شوقاً.

كنت أشم في فيرا رائحة الشرق، الشرق الجذور. لا أدري لماذا؟.

كأنها بقايا معبد نبتي صافح الحضارة المروية، رماد ذكرى صلوات تلاشت في سكنات هيكل طنجي ، أو ذكريات أيام اشبيلية قضيناها بين ضعضعة الأيام ، حيث ضاع الحب والتاريخ هناك، وحيث تدفق الدم يهدر ويغلي، يحمل في كل قطرة من قطراته اسمك وحبك ... حبك ... ولم يصبنا منها سوى شتات وضياع الماضي الحزين ...

في الوعي أو اللاوعي يوجد طريقنا المرسوم الذي نسير فيه للنهاية... أنا انفعالي ما في قلبي لا يخفيه وجهي. ومع ذلك فأنا لا أكره أحداً على الإطلاق...

في طوال حياتي السابقة لم أكن حقداً لأي كان حتى من طعنوني بقسوة من وراء ظهري. وفي قلبي مساحة للكل حتى من آذوني وأساءوا إلي.

وفي قلبي حتماً مكان لفيرا...

رماد ذكرى في تلافيف عقلي لا أدري من نثره ... قد يكون لقاؤنا الأول تم في العدم قبل أن نولد بسنوات وربما وربما...

حين أشعر بالحب أنكفي على نفسي... شعور فظيع بالغربة ينتابني ... ووجيب قلبي يقفز فوق ضلوعي وتبينه ملابسي ولا أستطيع إخفاءه أو التقليل منه مهما فعلت...

أنا لست انطوائياً مع من أحب وأألف. ولكن مع من لا أعرف الوضع جد غريب...

والحق يقال لأول مرة منذ رحيل فاطنة بت محمود أشعر بالألفة وعدم الوحدة ، فأنا وفيرا ننام كل ليلة في بيت واحد تحت نفس السقف، إحساس بالأمان افتقده زمن طالت مدته منذ وطئت

قدماي تلك الديار الصقيعية. أخيراً وجدت الإنسان الذي يقارب سني وربما مشاعري التي عربدت بها عجوز موسكو الغابرة.

وأخيراً ابتسم زماني الذي رماني بشتى أحاسيس الوحدة القاتلة والتي زاد من ملامحها رحيل فاطنة بت محمود المفاجئ. ولكنني اليوم أولد من جديد وبمشاعر تتنفس أمال مستقبلية مبشرة ...

ولم أدر أن القدر كان لي بالمرصاد...

(٢٢)

في يوم لا يمكن وصفه بغير الصحو، استيقظت بعد خروج مارفا ليوبوف لقضاء بعض حاجيات البيت.

لأول مرة تتركنا لوحدنا أنا وفيرا...

خرجت للصالة متشاغلاً بالقراءة كعادتي وفي رأسي هواجس الدنيا والآخرة . وبعد قليل خرجت هي من غرفتها. لم نتبادل سوي تحية الصباح ووجيب قلبي تسمعه حتماً...

عقلي غابة أفكار استوائية وقد بدأ يعمل أخيراً في الصقيع الروسي... إنها ربما الفرصة الوحيدة التي ربما لن يجود الزمان بمثلها لمصارحتها بحبي ...

وجلسنا سوياً ، لم أشعر معها قط بالغربة ، ولم أشعر إلا بالكلمات تتسلل من فمي تسللاً و كأن شخصا غيري يتحدث:

فيرا أنا أحبك ... حب ملك علي كل جوانحي بحيث لم أعد أحتمل كتمانه.

في تلك اللحظة حدث تغير رهيب، لم أكن أتوقعه إطلاقاً

فبعد أن جلست بجواري في استرخاء قابلة للأخذ والعطاء. اعتدلت في جلستها وهبت واقفة كالمصعوقة فعلاً...

ثم نظرت إلي نظرة غريبة أدخلت الرعب في فرائصي المرعوبة أصلاً من شدة حرج الموقف ...

لم يكن تفسيرا للنظرة حينها سوى الاحتقار والازدراء. الوجه الملائكي تحول في ثوان معدودة لمسخ غريب، كأن مساً جنونياً

أصابه وغادرت الصالة سريعاً في عجالة لم أرها في السابق أو حتى اللاحق من أيامي المضطربة ...

لم تنبث بكلمة ، وحتى حينها لم أعرف ما حدث وسبب التغيير المفاجئ في مشاعر فيرا تجاهي ...

هل تسرعت في إخبارها بحبي ؟.

أم هي لم تبادلني المشاعر في يوم من الأيام وأني جسدت وهماً صنع خيالي أجزاء كبيرة منه ومن فصول حبها الواعد الذي تخيلته، وأُصدم فيه اليوم .

(٢٣)

رجعت مدام مارفا للبيت، وأعدت مائدة الغداء لوحدها . فمنذ قدوم فيرا لم تطلب مني أو منها أي نوع من أنواع المساعدة حتى إعداد مائدة الطعام، ويا ما طلبت مني ذلك في السابق يوم كنا وحدنا .

جلسنا في المائدة دون حديث ، ونظرة فيرا بمدلولات الاحتقار والازدراء ما تزال عالقة بذهني .

غادرت المائدة ومثل تلك الأفكار تراودني ... عموماً إن مر المساء ولم يحدث أي شيء من فيرا أو أمها فقد مر الأمر إذاً بسلام ...

وجاءت جلستنا المسائية ولم يحدث أي شيء يذكر ، سوى أن فيرا لم تعد ترسل نظراتها قبالتي ...

فيرا اللحن المسكوب على القلوب ، كل ما فيها ينطق بأن لها قلباً كبيراً قادراً على إعطاء الحب لكل الناس.

فلماذا أحرم من دونهم من هذا الفضل؟.

ولماذا لا يشملني هذا العطاء ؟.

لا أدري لماذا أقابل وحدي بهذا النفور؟! .

في صباح اليوم التالي ألفيتها واقفة في شرفة الصالة حيث نجتمع، كان الجو بارداً جداً ، شاردة الذهن كأنها ترتب أمراً داخل عقلها غير المجرب...

دون وعي جلست على ركبتي ولثمت قدمها الصغير، يا له من قدم يؤكل بحذائه.

طلبت عفوها وأن تسامحني على ما بدر من تصرف لم أحسنه... وانخرطت في نوبة بكاء ... بكيت كما لم أبك منذ وفاة الحاجة فاطنة، حتى بللت القدمان الطاهرتان التي أحب...

لم تنظر تجاهي ولو نظرة واحدة ، ولم ترحم حتى دموعي المهدرة في بلاط الشرفة، قامت برفع رأسي بأطراف أصابعها، منتهى الذلة ولكن هل مع الحب كرامة؟، ثم سارت في كبرياء زائد تجاه غرفتها متجاهلة النظر تجاهي بالمرة وكأن كل ما حدث ـ من اعتذار على خطأ لم ارتكبه واليوم أكفر عنه ـ لم يكن له ثمة وجود في بلاط صاحبة الفضيلة ...

أخذ كبريائي الجريح يصحو بعد ثبات طال ليله...

هل قلب هذه الحسناء قد من حجارة صلدة قاسية؟. ألا يمثل هذا التصرف تناقضاً صارخاً في شخصيتها بادية الرقة ... ألا تمتلك عاطفة من أي نوع ... ألم تهبها الغريزة أي ميل تجاه الجنس الآخر ... أم أن ذلك التجاهل كان لي وحدي دون سواي ، مائلة لبني جلدتها مستعدة للتضحية من أجلهم...

فقد أكون أنا في نظر فيرا وحتى أمها من سلالة أخرى القهر والأغلال في دمي ...

أنا عاشق لك بمقدار عشقي لحريتي ...

وحبي لك هو جزء كبير لتخلصي من عبوديتي ...

وبيني وبين نفسي كنت دائماً ما أردد في تلك الديار، وفي الشعر عزاء . أعلل النفس الحزينة بأثر تلك النظرات المتعالية القاتلة...

الذين يأتون أخر الليل

و تشتعل ارتواء

المئات مثلك يتسولون

في الحواري والأزقة الضيقة

بانية المساء

وأنا الشاعر الفرد

ابن الأكرمين

النيل

وأشرعة السماء

فلماذا تنظرين إليَّ

نظرات ازدراء

وجه امرأة تدار

وراحلة عجوز

وغابة كستناء

وهم تنزَّ عز صيف

مطر تساقط دون ماء

فيا أخر الشعراء

الليل يتوج شاعره

والشمس تقلق راحة الأرض

وموعود الشتاء

فأزيلي أثار الهزيمة

توضئي للنوم

هذي ساعات الصفاء

لم تفعلي إثماً

تجزي عليه

أو تجتني جرماً

سوي تحرِ الرؤية

في لحظة عناء

فالأشجار في مواسم

قحطها الأولي

تنطلق انصرام

وتزدحم انطفاء

فإلى اللقاء

إلى اللقاء ...

(٢٤)

مهما يكن من أمرهم، فأنا بدوي من بلاد الزنج، وعموماً لا فيرا ولا أمها كانتا قادرتين على تغيير معالم الظل والمدى في حياتي ...

وفيرا ربما تريده أوربياً متحضراً وجاهزاً لتقديم التنازلات. ليس مثلي متعصب متمسك بتقاليده... متخلفاً حسبما يرى القوم ... ربما ...

القلب المجروح كان يناديني بأن أخرج من هذا المكان دون عودة، وفي لا وعيي نداء يلاحقني بالبقاء، ثمة أمل ...

أفة كل شيء التردد ... وأنا بحر التردد الأول بلا منازع ...

العلاقة الجسدية بيني ومارفا انقطعت منذ مجيء ابنتها، فقد كانت تحترم أدبها الجم فيما يبدو...

أدب غير مبرر في بلاد تتعرى نساؤها بسبب أو بدونه...

وأنا لم أفق من صدمتي الصباحية ... خيبت مارفا ظنوني تلك وجاءت تحبو مساءً بقميص نومها، متسللة على أطراف أصابعها حتى لا تحس فيرا بدخولها غرفتي.

لم ترنِ منذ يومين، لم تطق صبراً على فراقي ولم تستطع الصمود حتى عودة ابنتها للداخلية مرة أخرى وأطفأت النور...

وطلبت النوم معي ... و بعد أنا لم أفق من صدمتي الصباحية ، وكأني مجذوب إليها بمغنطيس جبار وفي عدمية صارخة وجدت نفسي معها مرة أخرى بعد أن أخذت روحي تتحلل من أدرانها منذ قدوم فيرا...

وكما يحدث في واقع شديد التعقيدات بقصة قمة في التراجيدية، فتح الباب والنور في نفس اللحظة، كانت فيرا بالباب ...

أمها أسفلي ... ولم أع أي شيء بعد ذلك سوى صرخة صدرت من فيرا وأمها في نفس الوقت، في آن واحد .

حزمت حقيبتي المتواضعة ، وخرجت من البيت مكللاً بالعار وعظيم ما اقترفت، وحمدت الله في سري على ما حدث برغم عظم المأساة، فأخيراً سوف أتحلل من مارفا...

أفة كل شيء التردد ،ذاك قرار كان علي اتخاذه قبل أن تصل الأحداث لنقطة اللا عودة هذه...

وخرجت إلى أين تقودني قدماي لا أدري ؟، ومع ذلك خرجت...

(٢٥)

تجولت بقية ذاك الليل في شوارع موسكو الخالية وكأنني أراها لأول مرة بصورتها الجليدية تلك في وقتها ذاك، وأنا أتحلل من أدران وقبضة مارفا المثقلة بكل ما هو قمئ... وعند قدوم الصباح حزمت أمري تجاه داخلية الجامعة مودع بيت مارفا للأبد كما كنت أظن...

حتى لحظتها لم أفق من صدمات ليلة البارحة المتتابعة.

ما الذي جعل تلك اللعينة تأتيني في وقت مثل ذلك وفي وجود ابنتها؟.

وما الذي جعلني أقدم على فعلتي الشنيعة تلك في ظل وجود رمز الطهر والبراءة الذي أعلنت له حبي ذاك اليوم رغم شدة الصدود الذي بدأ منه؟. ثم ألم تكن مثل تلك العلاقات في بلادهم عادية أو شبه عادية ، فلماذا صدمت فيرا بهذه الدرجة وصدر ما صدر منها من صرخة هستيرية هزت أرجاء المكان؟.

قد تكون فيرا ندمت على ما فعلته معي بالصباح وجاءت معتذرة تطلب الغفران على ما بدر منها، فتجدني مع أمها...

يا مثبت العقول ... يا مثبت العقول.

ماذا فعلت في غابر أيامي كي أنام في الأرض؟، وأتقيأ ترابها في أشباهها ، في مدينة ينام خصيانها فوق السحاب.

لماذا فعلت ذلك وعلى مرمى حجر مني حب فيرا الطاهر العفيف، لأطلب حب أمها الداعر ...

في ليلة مشؤومة مثل تلك كان يمكن أن أطلب منها أن تتنازل عن هذه العلاقة الشائنة، كان يمكن أن أتوسل إليها إن لم يكن من أجل طهارتي التي انتهكتها، فلأجل ابنتها على الأقل...

لماذا لا أدري في لحظة مثل تلك تمثلت لي مارفا وصياً يريد محاسبتي على جملة أخطاء ساهم الجميع في ارتكابي لها؟.

و لا أعرف لماذا يصر عقلي حتى الآن على أنها كانت تعرف قصة حبي لابنتها ومع ذلك أصرت على فعلتها تلك...

ولماذا أحس في قرارة نفسي بأنها كانت سوف تتودد، إن كنت تريد قلب فيرا فخذه، بشرط ألا ترميني في سلة إهمالك، وتذكر أن الطريق إلى أواسط فرنسا يجب أن يبدأ من أطراف إسبانيا هكذا كان يعرف أجدادك ...

هناك أناس لهم القدرة على تحويل حتى أمانينا السامية إلى صفقات تجارية بحتة، ومارفا ليوبوف تمتلك مثل تلك العقلية، وبحركة لا شعورية خارج لا وعيي أمسكت رأسي وأصبحت أصرخ

لا ... لا . إنني لا أريدها فيرا الجسد ... إني أريدها فيرا صاحبة القلب الكبير ... وروحها الملائكية المتسامية ...

لكن صرخاتي ضاعت في الفراغ ، في الهواء وفي صمتي المطبق ... فمارفا نجحت في قطع آخر خيوط الأمل .

فآه منكم يا من تحلمون بطريقة مختلفة، تتناسلون بأبشع الطرق ومن عجبي تفكرون في الموت والحياة بصورة تختلف عنا... تتقدمون وتتخلفون ، ومع ذلك في كل الأوقات ننظر إليكم بإعجاب وتقدير لا حدود له.

لماذا يا أصنامنا المصنوعة من الأوهام؟ .

أولئك أقوام شغلتهم رفاهيتهم عن الشعور بألآمنا ، ونحن شغلتنا تفاهاتنا عن الاهتمام بأمورنا وأدق تفاصيلها ...

(٢٦)

أمتع لذة أمارسها، لذة الانتصار ... وأكثرها مرارة طعم الفشل.

مارست لذة الانتصار مرات وكذلك جربت مرارة الفشل . أمتع انتصاراتي تلك التي توصلت إليها بمجهود فردي وطرق مشروعة.

لكنني اليوم أحس بمرارة الفشل ، أفظع بكثير من أي مرة سابقة تجرعتها. لأن عوامل فشلي هذه المرة تداخلت فيها عوامل كثيرة ليس لي فيها يد...

تفكيري الانهزامي، تداعي أفكاري الحر بدأ ينتابني، فيلسوفي الداخلي الهدام يريد أن يجد المبررات لأفعالي الشائنة...

وصرخة فيرا تنتصب أمامي و لا تريد أن تبرح خياليا ... كان يجب ألا أهرب منها ... كان يجب أن أستدر عطفها للنهاية ولا أستسلم للفشل هذه المرة بالذات.

كان يجب أن أستحلف مارفا أن تتركني وشأني وتتنازل عن هذه العلاقة الآثمة وتخلي السبيل أمام قلب فيرا وقلبي من أجل علاقة تستشرف آفاقاً مستقبلية.

أنا فعلاً أستحق العطف والشفقة، أنا قادر على العطاء ولكن ذكريات طفولتي الصعبة ووحدتي المريرة تطاردني، وثمة ظمأ شديد للأسرة يكبلني.

وبعد هذا الذي تقيأت على الورق من أفكار، تنقطع اليوم بصورة بائنة ما بيني وبين أهل الظاهر ... وتتدرج وتندرج ما بيني وبين فتوحات أهل الباطن ...

(٢٧)

عقلي غابة أفكار غير قابلة للتنفيذ، وأنا بعد كل الذي حدث أصبحت أكثر شللاً ولا أقدر على فعل أي شيء... في مثل هكذا كوابيس أمضيت أيامي منذ رحيلي من بيت مارفا ليوفوف، مر شهر على تلك الحادثة التي ضعضعتني بما لا يماثلها البتة. ولا أعرف كيف مر؟.

عقب كل يوم دراسي شاق وطويل ، أعود أدراجي لغرفتي بالداخلية ، لتعصرني التوابيت الباردة وتعتقل لحظات الحرية القليلة النادرة التي كنا نجدها في تلك الأصقاع ...

السيل الجارف لا يبقي في طريقه شيئا وأنا هوج العواصف التي جاء لتكتسح وتزيل كل مظاهر الزيف والخداع في حياتنا ...

لم أعد أهتم بما حولي، حتى الطعام تركته. وعاد سراب سالم مهدي يطاردني من جديد بصورة غير مسبوقة، فإن فشلت في حب فيرا فعلى الأقل يمكنني قبض السراب الذي كبل كل سني حياتي، فقد يوجد بعض العزاء حين أجده وأعرف منه سر هروبه الدائم .

في اليوم التالي ذهبت لإدارة الجامعة قسم المبعوثين لنيل درجات فوق الجامعية، فالذي أعرفه تأكيداً الآن أن والدي قد ابتعث للجامعة الروسية بموسكو وهي تقارب الجامعة التي ابتعث إليها وإن اختلفت الدرجات ومقدار الطموح.

بدأت البحث في أرشيف الطلبة المتقدمين لنيل درجة الدكتوراه، زاد من صعوبة المهمة تقادم السنين، وفي أي علم كان أبي ينوي الحصول على تلك الدرجة؟.

عملية بحث طويلة ومضنيه كانت مع أمل طفيف في العثور عليه . وبدأت بالكليات الإنسانية ، وجدت أسماء لطلبة من السودان ومصر وسوريا، تلك الدول التي رسم الغرباء حدودها القطرية بعد سايكس بيكو وربما قبلها بقليل، وبقية من أجناس أخرى .

وواصلت بحثي، دكتور عبد الله أبوبكر، دكتوراه في فلسفة التاريخ ١٩٦٩م - وذلك بعد رجوع عافيتهم أعقاب أكثر من عقدين على قيام حربهم العالمية الثانية والتي أخذت منهم الكثير من البشر والحجر ضمن ما أخذت ـ مكان الميلاد مدينة أم روابة ١٩٣٦م .

كل يوم يمضي كان يفت من عزمي ... ووصلت الكليات العلمية، في العلوم الإنسانية صادفت كثيرا من الأسماء لأشخاص من بلدان عربية وأفريقية وأسيوية كونت فيما بعد ما يعرف بدول عدم الانحياز ، ولكن في العلوم البحتة كانت الأسماء أقل بكثير. ماذا كان سوف تكون بلادهم يا ترى لو تكاثرت أسماء علمائها في مثل هذه التخصصات؟.

أول اسم صادفني في العلوم الطبية، د. محمود محمد نوري من مواليد مدينة مروي ١٩٣٠م ، دكتوراه في جراحة القلب ١٩٦٦م . نظرت إلى صورته ، كانت ملامحه سودانية أصيلة بـ (شلوخه) العريضة ، رجولي الملامح . وأنا يعجبني النبوغ السوداني لست متعصباً لقومية ، ولكن ذاك شعب له كثير من الملكات والنبوغ المهدرين .

أمثال د. أبوبكر ودكتور نوري كثير تجده في شوارع أوروبا من طلاب العلم والسياحة ، أناساً مهما تقلبت عليهم الظروف لا يتغيرون تجد فيهم الأصالة والشهامة والكرم، قد تضطرهم ظروف العيش والطموح والدراسة للترحال كبعض الطيور المهاجرة . أين ما وجدتهم في أي مدينة وبأي شارع تعرفهم بسيماء واضحة، قد تتغير سحناتهم من أثر البرد و النعمة، وربما تتغير ألسنتهم بفعل طول الإقامة ولكن حتماً يبقى شيء ، شيء ما يميزهم تحسه ولا تلمسه.

لا أدري لماذا سرحت في هذه الصورة كثيرا لعلها أثارت في نفسي نوعاً من الشجن غلبت عليه العاطفة.

واصلت بحثي ثلاثون يوماً تجولت في مختلف التخصصات، العلوم النووية والهندسية ، ها أنا ذا أخيراً أبحر في العلوم ...

ثلاثون يوماً وأنا في جزيرة معزولة ، الماء من حولي يغمر الأفاق بلا إرواء، وسفن إنقاذي غرقى بسبب أن سالم المهدي ربما لم يكن في يوم من الأيام حقيقة ماثلة ...

كل تلك الهواجس لحين رسو سفينتي ببحر العلوم كما أسلفت، أمضيت أياماً شاقة وأنا أدقق النظر في كل اسم وفي كل صورة وأخيراً وجدته ... وجدته ... صرخت بما قال من قبل غيري مع بعض التصرف...

د. سالم مهدي ، سوداني من مواليد مدينة أم درمان ١٩٢٥م ، دكتوراه في الفيزياء ١٩٦٤م، حتى تلك اللحظة لم أنظر إلى صورته.

وأخيراً نظرت لمدة لحظات كنت خلالها كأنني لا أراه ،فتلك أول مرة تكتحل عيناي برؤيته ...

ها أنا ذا أخيراً أجدك يا أبي ... يا سر عذابي...

كان وجه بريء عكس ما تصورت، وأنفة ضخم بارز وشفتيه مليئتين فوقهما شارب كبير يدل على فحولة زائدة. في العيون نوع حاد من الذكاء ، إن دققت النظر فيهما ضاعت ملامح براءة الوجه وحل محلها ذات مغرقة في الشهوات.

لم أعرف كم من الوقت مر وأنا أتأمل الصورة، حتى نبهني عامل الأرشيف أن وقت العمل قد انتهى وحان وقت إغلاق المكتب.

وأخيراً وجدتك يا أبي بعد كل هذه السنوات التي كنت خلالها منبت الجذور، جئت يا أبي لروسيا باحثاً عن ذاتك الزرقاء المموهة قبل طلبي للعلم في هذه الديار.

لقد كنت الباحث عنك ، عن أصولي اللا مرئية ، عن جذوري الهوائية .

ونمت في ذاك اليوم كما لم أنم منذ حادثة منزل مارفا الأليمة.

(٢٨)

وفي اليوم التالي رجعت مرة أخرى لأرشيف الجامعة وواصلت البحث والتنقيب عن سالم مهدي الوهم والحقيقة، لعلي أجد خيطاً رفيعاً يدلني على مكان وجوده إن كان حيا ...

لكن بحثي حتى اللحظة كان دون جدوى، وكل ما توصلت إليه من معلومات جديدة لم يتجاوز تلك التي عثرت عليها في اليوم السابق.

توجهت لموظف شئون الطلاب المبعوثين للدراسات العليا لعله يدلني على خيط ولو رفيع استدل به على مكان وجود أبي وهل ما زال على قيد الحياة؟.

الجديد في الأمر لم يتعد بعض الأمل والذي تمثل في وجود رجل تقدم به العمر اسمه لينشتاين، ويعرف الكثير عن الطلبة المبعوثين وحتى أسرارهم لأنه المسئول عن داخلية الطلاب الوافدين منذ فترة طويلة .

استدرك الموظف بأن لينشتاين لا يحضر الآن للجامعة يومياً ولكنه يحضر فقط يوم الأربعاء للسبب الذي ذكره آنفاً .

عموماً شكرته على معلوماته القيمة، على أن أحضر يوم الأربعاء المقبل علني أجد خاتمة سعيدة لقصة حياتي شديدة العذاب والألم والتعقيد ...

و جاء اليوم الموعود، وقد انتظرته على أحر من الجمر، صحوت مبكراً على غير عادتي منذ وفدت أرض موسكو ، فلا صلاة فجر في هذه الديار مع أنني جربت كل متع الحياة، ولم أجد ألذ من متعة صلاة الصبح في ميقاتها، تلك أيام وذاك زمان أفتقده في

هذه اللحظات الصقيعية بين غياهب آثامي المتراكمة المتراكبة هذه الأيام، غفرانك ربي ...

صحوت مبكراً، وارتديت ملابسي بسرعة .وطرت للجامعة لمقابلة لينشتاين ، دلني موظف شئون الطلاب على مكتبه، رجلاً عجوزاً ضعف البصر منه وهزل الجسم وحتى الحياة، ذو قامة قصيرة.

حييته بحرارة لا تعرفها تلك الأصقاع . وسألته إن كان يعرف أي معلومات عن دكتور سالم مهدي الذي كان يدرس في هذه الجامعة قبل سنوات.

أجابني بصوت أوهنته الأيام أن الفترة حسب كلامي طويلة، وهو لا يتذكر الآن الكثير وخصوصاً أن الطلبة المبعوثين من السودان كانوا كُثر على مر الأعوام .

لكنه استدرك قائلاً بعد أن رأى تقاطيع وجهي المحبطة، بأن له ذاكرة فوتوغرافية جيدة فإن رأى صورة له فقد يتذكره.

طلبت منه بصورة متضرعة إن كان يقدر الذهاب معي للأرشيف فالصورة الوحيدة لسالم مهدي في الأرض موجودة فيه. وافق الرجل على طلبي في الحال، راثيا لحالتي والطريقة التي رجوتها به.

ودخلنا الأرشيف ولحسن حظي تعرف على صورته، ولكنه اعتذر بأنه لا يعرف الكثير عنه، فقد كان شديد الانطوائية .

و أردف قائلاً: ثم إنه كان ليس كبقية الطلبة يقيم أغلب وقته خارج الداخلية، وأتذكر جيداً الآن بأن صديقه الوحيد بالجامعة شخص يدعى رودربروفسكي ، هو أيضاً لا أعرف عنه الكثير، ولكنه كان معه في نفس الكلية وحصلا على درجة الدكتوراه في

نفس السنة، وأظن أن بروفيسور رودربرفسكي إن لم تخنٍ الذاكرة حصل على درجة الأستاذية ، ويوجد الآن ببلدته الأصلية لينينغراد (بطرسبورغ سابقاً) ويدرس الآن بأحد أكبر جامعاتها .

شكرت العم لينشتاين على معلوماته القيمة بحرارة لا تفوقها إلا الحرارة سلامي الأول معه . على أمل أن أرد له الجميل في أقرب وقت...

لا وقت لدي كي أضيعه في موسكو ... يجب أن أشد رحالي فوراً لبطرسبورغ لعلى أجد الخيط الذي سيقودني لسالم مهدي ، دكتور الفيزياء الذي درس حتماً في جامعة موسكو نظريات نيوتن في الحركة ـ تلك النظريات التي يرجع الفضل في اكتشافها قبل قرون خلت لأجدادي ـ وأنا كتلة القلق و الحركة الذي لم يوجد حتى الآن القانون الذي يفسرني لا في عصر أجدادي أو الآن ...

(٢٩)

عند دخول غرفتي لأخذ بعض حاجيات سفري الضرورية، أخبرني موظف الداخلية بوجود امرأة كبيرة في السن بالاستقبال تنتظرني .استغربت لذلك فما كنت أظن بأن أحداً سوف يزورني في يوم من الأيام بداخليتي تلك وفي تلك الأصقاع .

في الاستقبال وجدت مارفا ليوبوف في انتظاري، أخر مرة رأيتها فيها كانت منذ الشهرين تقريباً ، لاحظت تغيراً رهيباً في هيئتها، فقد شاخت فجأة وهزل جسمها بصورة لا يمكن تصورها.

العيون متورمة من أثر بكاء متواصل ، ومن بين دموعها أخبرتني بأن فيرا مريضة جداً ، وقد تركتها وهي تنازع الرمق الأخير ، وهي تتمنى أن تراك قبل موتها ورجتني ضارعة أن لا أخيب أملها الأخير، فهي من اليوم السابق تردد اسمك وتتمنى أن تراك لحظة واحدة قبل موتها ، وتركت كل شيء في يدي ، ونسيت سالم المهدي وطرت إلى منزل مارفا ليوبوف ...

دخلت على فيرا في غرفتها ، كانت ترقد على فراش ذي ملاءة بيضاء ، رائحة الحنوط ورغو المقبرة يفوحان في كل مكان ...

تذكرت ليلة وفاة بت محمود ، وأقشعر بدني .

إني حزين يا حبيبتي ، لا تسألين عن أسباب حزني وعما بي ألم ، فلا سبب للحزن في هذه الديار ...

وجه فيرا كان شاحباً عن آخر مرة رأيتها فيها وبصورة مقلقة .

أين رحل بلا عودة كل ذاك الجمال والحيوية؟ .

الأنفاس المتلاحقة وعلى الجبين حبيبات عرق تتحدى كل ذلك الجليد بالخارج ، بصعوبة كانت تتكلم ، حين رأتني أشاحت بوجهها عني ، كأنها تعاتبني على الجرم الفظيع الذي ارتكبته مع أمها، رغم أن اسمي كان يتردد على فمها طول الوقت.

وهي حتماً تكابد لحظاتها الأخيرة لم يغب عني ذلك، قد رأيت تلك الصورة قبل هذا.

قلب فيرا الرقيق لم يحتمل الصدمة وهو يوشك أن يتوقف الآن .

جلست على ركبتي أخذت يدها، وحاولت أن ترفض بقوى واهية ، قبلت جبينها كأنني راهب خاشع في حضرة الروح ، اغرورقت عيناي بالدموع رغم أنني حاولت جهدي أن أبدو متماسكاً.

باردة برودة الثلوج الروسية القاسية ، أين ذلك الدفء الذي كان ينبعث منها ؟.

أين ذلك الإشراق الاستوائي الذي نثرته في البيت حينما أقبلت لأول مرة؟.

نظرت إلى نظرة واهنة وكانت تلك نظرتها الأخيرة ...

أحمد سالم ...إني أحبك، وأصبحت أنفاسها تتقاصر وكانت تلك آخر كلمة قالتها...

واحتضنت بشدة الجسد الذي فارقته الروح ، أيضا إني أحبك يا فيرا ، حب ملك علي كل جوانحي ، كنت أنتِ حبي الوحيد، حب من النوع الذي لا تقدر كل كلمات الدنيا أن تعبر عنه .

جسدها بارد برودة أحد قطبي الكرة الأرضية وقبل أن تسمع كلمات حبي الجوفاء تلك والتي لا قيمة لها بعد فوات الأوان أسلمت روحها بين يدي...

كتب عليك يا أحمد سالم أن يموت أعز الناس إليك، بين يديك وأنت تنظر نظرتك البلهاء هذه...

لماذا يصر عقلي في لحظة حزن كهذه على وجود خيط رفيع بين العذاب والحرمان اسمه سالم مهدي؟. وأن أعز الناس لدي في هذه الدنيا فاطنة بت محمود وفيرا، جميعهم قد ماتوا، ذهبوا بلا رجعة.

ثم أنه أي شيء جميل في هذه الدنيا مهدد أيضاً بالموت في أي لحظة ...

وصرخت أمها بما هز أركان المكان ، لم تتساقط دموعي بعد ذلك . كان حزني أكبر من الدموع ، عامل الصدمة جفف ينابيع الماء في جفوني ...

وكان وعدك صالحاً يا فيرا ... مدخلي إليها كان إيماني بحتا، إنساناً يحاول اقتلاعك من دائرة أحزانك بهذا الصدود التي لا تعرفه نساء هذه البلاد ...

وحدوه يا سادة يا كرام في بلاد الكفر والإلحاد هذه ...

الذي بيني وبينك

قضية عشق

امتدادها ألف عام

صغيرة على الحب

صغيرة على الحياة

لكن شيء ما بيننا

أقوى منك ومني

وأدته الظروف

فلماذا تتركينني وحيداً

لجراحي وأوراقي ...

غداً سوف يأتي الخريف

ويرحل الأغيار

عن ديارنا

حياتي بك كانت ابتداء ـ أنا ذلك الفتى الأسمر القادم من مدن التيه والضياع ، مأسوراً بوهج قضية معلقة، البحث عن سالم مهدي ـ تغيرت ملامحها منذ أن التقينا ... صارت همومنا واحدة ... وهواجسنا كذلك ... بل صارت جراحنا تتألم بصوت واحد ... التحمت آمالنا، هكذا كانت تنبئ العيون التي أدمنت الصمت وعدم الكلام ...

لكم كنت صغيراً وعنيفاً وأنت ترسل بالشرفة النظرات قبالتها، بعض شوق قد تبخر بفعل الصدمة...

كنت أتمنى من قلبي أن أمثل لفيرا سكناً ووطنا ،ولكني مثلت لها عشقاً مسكوناً بالجراح، بالندوب الغائرات والجنون المميت ...

يا حبيبي ماذا لو تداعى علينا الناس، أو تساقينا الهوى ، ماذا يضير الجرح لو فتحت جراح...

نعم أحببتك يا فيرا بكل عنفوان الحب، وبكل كبريائه ما استطعت، لكن ماذا أقدم وملء يدي الفراغ وملء روحي السراب، سراب سالم المهدي ـ عواطفي قبل أن أراك أصبحت محايدة ـ وماذا

أفعل إن كان فتى أحلامك أشقرا ، وأنا من سلالة أخرى ، القهر والأغلال في دمي ، القاتل وأول الضحايا موءود بحبك المستحيل، لا أملك المواصفات التي ترغبين فيها الآن، ولا أستطيع حتماً امتلاكها في المنظور القريب.

لا شيء بيننا لو تنطق الأحجار الآن، والجسد هامد، آه لو تنطق الأجساد قبل الرحيل المر ...

الإنسان منا موقف، ولكن كم منا يستطيع الصمود على مواقفه؟... ألا أنني اخترتك دون نساء العالمين ... وإليك وحدك أكتب رسالتي ... أرسل آهاتي ... يتم اليوم هذا الرحيل المفجع ...

أحن إليك بالفرح الطفولي كله

يقولون عني عالمي السمات

لكنني ما أزال أحن

إليك أنت

أنت وحدك

حبي

موطني الأول

والأخير ...

حزني عليك أكبر من الأحزان، ألمي عليك أكبر من الآلام ، سأهتف باسمك ما حييت ... سأكتب اسمك على الجبال وأغصان الشجر ... كنت بين خيارين نفسي وأنت ... فقدمتك أنت ...

إني لا أريدها فيرا الجسد ... ولكني أشتاق فيرا الطهر والعفاف والفضيلة الذي تمثله في حياتي تلك الخالدة في ذهني فاطنة بت محمود ...

في أثناء تشييع الجثمان المهيب، كان يهذي بكلمات مثل تلك، ويتمتم ببعض آيات قرآنية غير مفهومة تأكيد، لكن من حوله بالمدفن الروسي من الأحياء وكان له كل الحق فيما ذهب إليه وهو بين الأموات ...

وفي مقبرة فاجانكوفو أودعنا الجسد الغالي الثرى بعد أن خرج النعش الطاهر من بيت الرزيلة، كان الدفن مختصر أنا وأمها وبعض الأصدقاء وعمال المقبرة يلفنا الصمت والجليد وصمت قاتل...

في لحظة مثل تلك يفقد الإنسان كل مقومات الإحساس بالحياة التي يعيشها و يحييها بالفعل ...

خرجت من مراسم الدفن وكل أنواع الحزن تعصرني تكسر كل مداخل الحياة فيني، تاركاً مارفا ليوبوف تقرأ بعض الأدعية على روح العزيزة، الغالية علها تكفر عن أثمنا المشترك ...

(٣٠)

لم يبق لي في هذه الديار سوى البحث عن سالم مهدي ثم العودة لبلادي، فلا الدراسة الجامعية ولا غيرها أصبحت تشغل بالي ... كل خيوط الأمل قد تبددت بوفاة فيرا ... فيرا الجسد الطاهر الذي يرقد الآن تحت الثرى...

لم يتبق لي سوى أن أجدك يا سالم مهدي ، أريد أن أعرف فقط أين مكانك على خريطة الكرة الأرضية؟ .

ثم معرفة السبب في هروبك الدائم، هذا الهروب الذي دمر كل مفاصل كيان وجودي السابقة واللاحقة ... ووصمها بكثير من الحزن الذي يطبق على أنفاسي، والذي حاولت كل أحداث حياتي جهدها أن تزيد من جذوته يوماً بعد يوم ...

فقد كنت يا أبي أحلم بجنين لم يتشكل بعد في رحم المجهول مع فيرا، لم يكن يدور في خلدي أن الأحداث التي تمارس عملها بحرفية وحذق تحسد عليهما، قادرة على ذبح أجنة الغيب على خشبة الواقع المر.

(٣١)

ذهبت إلى بطرسبورغ السابقة، في طريقي إليها نزلت بحدائق بافلوفسك لأستجمع شتات قواي الخائرة، ولأسترد بعض أنفاسي الضائعة منذ ليلة وفاة فيرا.

هذه الحدائق كانت ذات يوم متكئ لقياصرة الروس ما عادت اليوم تدخل البهجة حتى في نفوس صغار الفلاحين.

لم يتغير حالي كثيراً في هذه الحدائق ،وفي دواخلي كانت تتضخم وتتردد أصداء أغنية قديمة رديئة النظم من شعري، جرى بها عقلي الباطن على لساني بصوت واهٍ

في موانـي الترحال والعشق القديم

نضيع النظرات

وبيننا لجة البحر

الظمأ

ولهفة الشوق الغريق

تبتلع الهمسات ...

وخيولي الخائرات

القوى

لا ظل

لا ماء

قعقعة سنابكها

في جحيم الصحراء

وكل أهوال الطريق

تقيم مأتماً للا شيء

لإرماد الحريق

ساستها الكلمات

...

وفي بطرسبورغ ـ فأنا حتى اللحظة لم أستسغ اسمها الجديد ـ ذهبت إلى جامعتها ومنها علمت مكان سكن البروفيسور بروفسكي حيث خرج من الجامعة قبل مقدمي بقليل .

دخلت منزله وعوامل الحزن تأخذ مني كل مأخذ وتخنق كل مداخل الفرح بدواخلي.

وجلست بصالة كبيرة بيضاء الجدران ، حيث فتحت الباب خادمة دلتني على هذا المكان. في رائحة البيت رفاهية لا تخطئها الأنف، في بلاد تحارب حتى البرجوازية الصغيرة وترفع شعارات حماية الطبقات العاملة الفقيرة.

ولم تمض إلا دقائق معدودة، وجاء بروفيسور رودر بروفسكي مرحباً في بيجامته الصوفية الثقيلة .

عرفته بنفسي ، أحمد سالم مهدي . ابن صديق قديم لك إن لم تكن قد نسيته.

ببرود مختصر أجابني ، آه ابن المرحوم سالم مهدي.

إذن قد مات ، هكذا ببساطة...

أفعل كل ذلك ، وأتي من بلادي لموسكو ويحدث كل ما حدث وهكذا وببساطة شديدة ، أجده قد مات.

في تلك اللحظة شعرت بأنني في حاجة ماسة للتشفي ...

التشفي في أي شيء موجود أمامي.

عليك اللعنة يا بروف رودر ...

فأنا ما ولدت وفي فمي ملعقة ذهب، و لاأنا بروف أتقاضى آلاف الروبل من حكومة الفقراء المزعومة هذه، ولكنني نتاج هذه الأرض ومن أحشائها خرجت أتحسس طريقي للنور ...

لا أبدأ يومي بقطعة جاتوه كما تبدؤون أنتم يومكم مع كأس حليب ولا كما تنهونه بقطعة كيك في عيد ميلاد ...

ولكنني أبدأ يومي كما كانت تبدأه الحاجة الصالحة بكوب من الشاي الأسود مع تنتج الأرض من بلحها وفولها وبقلها ...

أنا نتاج تلك البيئة البسيطة والناصعة في آن ...

زرعت حبي في أرض الثلج هذه، ورغم ذلك لا تدري أنت إلى أين وصلت تلك النبتة؟.

دفنتها بيدي قبل أيام قليلة بأحد مقابركم الصقيعية...

أموال حاجة فاطنة الشحيحة كانت تحاول من خلالها إسعاد البسطاء واليتامى من أمثالي.

أين تصل أموالكم أنتم ، هل تذهب للفقراء كما تزعمون دائماً؟.

أحن إلى بيتي الأول ورائحة الطين عند هطول الأمطار ، ورزازها عندما يغشى حيطان الزبالة، إلى منقد الحاجة فاطنة ساعة الصباح وكوب الشاي بالماء الطيني الملامح الكوثري الطعم .

أين هو من مائكم ناصع البياض ، الكبريتي الطعم ؟.

هذا هو نتاجي، برغم كل اليأس والإحباط، حيث ما زال هناك أمامي طريق الأمل وانتظار العودة للديار حيث يوجد الأطهار أمثال الحاجة حتى ولو كانوا ضمن الأجساد البالية في هذه اللحظة.

أين هو نتاجك ونتاج سالم مهدي؟ ، كل هذا الكم من العفن الكسيح المنبت الأصول، غير المنتظر عودته على الإطلاق . حيث يرقد بالتراب في هذه اللحظة منه ما يرقد ويذهب الباقي أدراج الرياح .

صدقت الراحلة فيرا في صدودها، فما بيننا بون شاسع من الاختلاف غير المريح ، والذي أصبح يثقل مسارات حياتي ويحولها إلى جحيم ، يشعل النار حول جنباتها المستعرة أصلاً ...

ماذا جنته يداي وماذا فعلت في دنياي لأقابل بكل هذا الصدود؟. حتى فيرا الذي أحببت بصدق ترفضني وبشدة. وأنا المعذب دوماَ ما أتعلق بحبل الأوهام ثم لا ألبث أرتطم بالأرض متحطماً بهوى أحمله غالباً وحدي بين جوانحي ...

إلى متى هذه الآمال غير المتحققة؟...

الكلام الذي لم أقله

أن حواء الذي أنجبتني

لم ترضعنِ حولين كاملين

ثم بعد ذلك ظلمتني النساء

مللت الانتظار ... مللت من دنيا الحب فيها لا يساوي الأحرف التي يكتب بها رغم قلة هذه الأحرف...

كل هذا الحقد ... كل هذه الضغائن التي تحرق القلوب التي تحملها لم أعد أطيقها...

أريد أن أتحرر من إرث سالم مهدي الثقيل ...

أريد أن أولد من جديد بلا مشاكل ... بلا مصاعب تعترض طريقي منذ لحظات الميلاد ...

فشلت في كل مشاريعي ... حسابات الدنيا أرهقتني ... أين البحث عن جني الأرباح الموهومة الموجودة فقط في أذهان من يتخيلونها، من الأرباح التي لا ينفد رصيدها، ولا ترتد عوائدها من حب الناس والإحسان والعمل الصالح والشعر ...

وما أدراك يا بروف بروفسكي ما الشعر وما الإحساس، وأنت تعودت أن تحسب لكل شيء حسابه حسب قوانين نيوتن وفرضياته، أين الرحمة بينكم ؟. لم أجدها حيث كل شيء في حياتكم يصب بحساب دقيق وله مواعيد ... لا بد من أن تعطى الجرعات بحسب...

وأنا ما تعودت الانتظام كترس في آلة تديرونها أنتم ... أم تديرها الدولة نيابة عنكم ... لا يفرق.

فأنا ذلك الإنسان القلق المتحرك المشاغب وفوق كل الذي يخشى ربه مهما حاوطته الذنوب من كل جانب.

الإنسان الذي لم يولد وفي فمه ملعقة ذهب ولا أظنها يوماً سوف تدخل في فمي ، فما أنا من الذهب ولا أنا من الحرير.

أنا من هذه الأرض ، أنا من هذا الخيش الذي يحرق جسد لابسيه.

ما تعودت كل هذه النظافة المصطنعة، المتعفنة في أصل دواخلها... لكنني تعودت نظافة القلب واليد والضمير منذ تفتحت عيناي أبصرت الدنيا بين البسطاء في بيت الطاهرة بت محمود...

وحينما غيرت جلدي ارضاءً لمظاهر المدنية الخداعة، تعبت يا بروف رودر ...

وما أدراك يا بروف ما تعب البسطاء أصحاب النفس اللوامة ...

ثم أنكم أيها البروفيسور إلى وقت كتابة هذه السطور مازلتم تعدون ضمن الأمم الحية بعالمنا المعاصر ويعود ذلك لثراء التجربة التي عايشتها الشعوب بمنطقتكم عقب الثورة الشيوعية المعروفة سنة ١٩١٧م وما تلاها من أحداث.

ولكن مع كل ذلك، يظل السؤال الذي يثور هنا وبشدة، أين أنتم أمام تلك الانهيارات الأخلاقية والحضارية السريعة والمتلاحقة التي تصيب مجتمعاتكم؟، والتي قد تؤدي في نهاية المطاف لتلاشي دولة عظمى بحجم الاتحاد السوفييتي.

هل كان صوتكم غائباً حقاً أمام هذه المتغيرات المذهلة؟. أم أن أصوات الشعب الروسي بعامة كانت مغيبة بفعل عوامل تضييق سياسية واجتماعية شتى، وهناك أصوات بالفعل تنبأت بقرب حدوث مثل هذا الانهيار ولم يستمع لها جيداً داخل البلاد أو خارجها في حينها.

فالنتيجة الماثلة أمامي الآن، أن الدولة الشيوعية التي نشأت عملاقة بعد الحرب العالمية الثانية، والتي تشكل أحد قطبي العالم حتى هذه اللحظة، نشأت كديناصور عملاق ولكن برأس صغير، لذلك لن تصمد مستقبلا وحتما ستؤول للانقراض. هل سنشهد في مقبل أيامنا حدث مماثلا للقطب الذي سيجاهد من أجل البقاء بعد انهياركم المتوقع؟.

ما يمكن قوله ودون تعسف أمام هكذا انهيارات، إن الإشارات بزوال الدولة السوفيتية الجديدة ورد في شعرهم منذ عهد بوشكين الذي استلهم الغضب والثورة على الأوضاع القيصرية إذا ما قورنت بالقيصرية الجديدة مع الفارق طبعاً

ولماذا ينبغي على هذه الشعلة أن تتوهج عبثاً في كياني

ولماذا لم أوهب الفصاحة

هل أعيش حتى أرى شعبيا حرا

متى تكسر قيود العبودية البغيضة التي أمر بها القيصر

متى يشرق في سماء وطني فجر الحرية الجميلة الخالصة

كما عبر بوشكين في قصيدته الشهيرة القوية أو كما بشر في قصيدة نشيد الحرية

أنني أريد أن أغنى للحرية

أن أفضح الشر المتربع فوق العروش

يا أبناء الحظ الأعمى، يا طغاة العالم، ارتعدوا

فإن شيئاً بعد اليوم لن يستطيع حمايتكم

لا التهديد، لا الوعيد، لا مذابح الهياكل والسجون

كونوا البادئين إذن بحني رؤوسكم أمام قوة القوانين الثابتة

كما يجب ألا ننسى، أدباء روس قاموا بتعرية أشياء كثيرة داخل مجتمعاتهم، وقاموا برفض الكثير من صور الكبت والتعسف ولكن تمت محاربتهم داخل وخارج الاتحاد السوفييتي، مثل بوريس باسترناك وآنا أخماتوفا والمنشور لهما داخلياً كان يعبر عن اتجاه القضية المطروحة شيوعيا، وأغلب شعرهم المضاد لم يكتب له النشر بالداخل وإنما كان يتسلل للخارج.

فبينما كان ملحمة بلوك " الاثنا عشر " والتي تغنى فيها بأمجاد الحرس الأحمر. كانت هناك أيضاً وفى فترات أخرى قصائد تشجب وتدين المجتمع الجديد وصور القمع والتنكيل ومصادرة الحريات التي جاء بها.

وقصائد باسترناك عن ثورة ١٩٠٥م وملحمته الروائية الشعرية سبيكتورتكى التي نظمها مع العديد من مجموعاته جاءت إلى جانب قصائد أخرى رفض فيها الكثير من الأوضاع الخاطئة والتي جاءت ذروتها في القصائد المنشورة ضمن روايته الشهير دكتور زيفاجو.

إن التقدمية والديمقراطية التي كان ينادى بها ضمن إطار الاتحاد السوفييتي كانت حسب المفهوم الماركسي.

والديمقراطية المسموح بها لا تتجاوز حدودا معينة لا يسمح للشعراء بتخطيها من خلال قبضة حديدية على الصحافة ووسائل الإعلام ـ وما أقرب تلك الصورة لما حدث بالولايات المتحدة أعقاب أحداث سبتمبر ـ وقصائد باسترناك وآنا أخماتوفا غير المضادة يجب أن توضع في سياقها التاريخي الأساسي.

فالمعروف أن فترات الحروب تغذى الشعوب بروح جديدة وربما تنسى الشعراء تجاوزات معينة ـ ألم تجعل الولايات المتحدة بمغامراتها غير المحسوبة كثيرا من النخب المثقفة العربية تصطف خلف بعض قياداتها على الرغم من معارضتها لممارساتها الديكتاتورية في أحيان كثيرة ؟ ـ ولكن بنهاية كل حرب تنكشف الأشياء على حقيقتها ويبدأ التململ من تردي الأوضاع من جديد. لذلك فموقف باسترناك وأخماتوفا ضمن هذا السياق مبرر وطبيعي.

فعندما أحس الروس بالخطر العسكري، انطلقت أصوات مثل انهضي يا بلادنا الشاسعة لليبديف. وآنا اخماتوفا التي غنت في حصار لينينجراد

أننا نعرف أن تعليق مصيرنا على التوازنات مرفوض

فنحن صانعو التاريخ

وساعات الشجاعة قد عركتنا وامتحنتنا أخيراً

والبسالة لن تهجرنا ابدا

إننا لا نهاب الموت، عندما تزمجر الرصاصات الوحشية

هي نفسها قد ضرب عليها الحصار في أوقات مختلفة، ودخلت في عزلة أكثر من مرة لمحاربة قصائدها الشخصية الأخرى والتي اعتبرت خارجة عن الإطار الجماعي الشيوعي.

والمعروف أن باسترناك لم يطمع في أن يكتب أي شعر ثوري وإنما تقبل الثورة باعتبارها جزءاً من المشهد التاريخي.

فبجانب تعبيره في ديوانه الخامس الذى صدر عام ١٩٢٥م للحديث عن تجربة الثورة الروسية، نجده ينشر

وإلى موسكو وصلنا، عندما كانت الظلة تذوب

وسط لجين فضي يحيط بكل شيء

بازغ من الأضواء عشية الفجر القوية

وكانت المدينة الكبيرة تفيق من هجعتها

المحطة مكتظة بحشود هائلة من البشر

تندفع وتجرى

فكل يبحث لنفسه عن مكان

والكل يريد أن يوجد

فهنا يدافع باسترناك عن قيم فردية محضة، متحررة أمام عالم تحكمت فيه الجماعة وأصبح كل فرد ترس في آلة الدولة

الضخمة. هي حلم ينشده الجميع فيه وفرة ورخاء ووجود لعزف فردى مفقود.

وعندما خرج باسترناك عام ١٩٥٧م من خندق صمته الذى يلجأ إليه متقي العواصف، كان اكتساب الإشارات في هذه المرة لأبعاد جديدة

كان يمشى من بين غينيا إلى القدس

تثقله أحزان الأيام الراهنة وهمومها

وقد صوحت الشمس شجيرات الشوك على الرابية

ومن الأكواخ القريبة لا يتصاعد أي دخان

وكان الهواء ثقيلاً، والقصب ساكناً

وكان البحر الميت هامداً دون حراك

كأن مرارة أفرانه صنو مرارة هذا البحر

وهو يسير ترافقه ندفا صغيرة من السحب

وكان الطريق المدب متجهاً صوب المدينة

حيث يلتقى هناك بحواريه

الذين يختلفون عن بعض سكان هذه المدينة

حيث اللجوء للرمز في مراحل العسف شيء مبرر ومنطقي تماماً. فهنا المسيح العصري المثقل بهموم أيامنا الراهنة، المحمل بمعجزة التدمير ومسخ الأشياء لا الخلق.

إذن إرهاصات التململ من أوضاع أدت للانهيار. كانت موجودة ولكن غيبت بأوقات ولتات في أوقات المصارحة، حين تخفت القبضة الحديدية على حرية الشاعر. لتصل ذروتها للكفر بكل شيء، الدولة وكل المعاني النبيلة بالحياة على يد الكسندر ياشين

عندما نتحدث عن الأشياء التي نعزها

التي فزنا بها فوق كل الأشياء

فستجدها تتضمن كلمات مثل

الوطن، الوفاء، الشرف

كلمات مثل الصداقة والاخاء

لا... هذه الكلمات... ليس بمعنى كلمات

مجرد كلمات فارغة...

فالحقيقة الثابتة عندي أن التغييرات من روسيا القيصرية للعهد الجديد، تمت بصورة عاصفة وعلى جناح السرعة.

وقد يكون المبرر لكم ولكل من عاصر تلك المرحلة من تاريخ بلادكم ومنفذكم التاريخي الوحيد، ان تلك الانهيارات تعزز مقولة أن البدايات قد تكون إرهاصات لشكل النهاية.

وسط كل هذا الاسترسال، كل هذ التهويم المفُحم، والبروفيسور لا يرد على هجومي الكاسح، كأنه لا يسمع هلوساتي .. آواه فالنظريات في غالب الأحيان لا تقدر أن تقيم نعيما على الأرض.

لم يرد علي أيضا ..

ثم أنكم تشكلون مراكز للقوى يعرفها الجميع.

دعكم في تيهكم وضلالكم، ثم أنني كنت أظن أن بلادكم جنة الفقراء الموعودة، أو على أسوأ الفروض أجمل من بلادنا، فنحن على الأقل نمتلك إيماناً ثابتاً لا يتزعزع برب العالمين ثم شمساً ساطعة...

ربما أسأت استعمال حريتي بدياركم، هذه حقيقة أعترف بها، وقد تكون تابعت بعض أخبار ابن صديقك السابق في موسكو، برغم زعمك عدم معرفتك بقدومي...

ولكني رغم كل ذلك ما زلت نفس ذاك البسيط الباحث عن جذوره الهوائية ، أصوله اللا مرئية...

كل هذا التهويم المفحم ،و البروفيسور لا يرد علي هجومي الكاسح، كأنه لا يسمع هلوساتي ...

آواه ، فالنظريات في أغلب الأحيان لا تقدر أن تقيم نعيماً على الأرض. لم يرد على كذلك ...

ثم أنكم تشكلون مراكز قوة في جنة الفقراء المزعومة هذه، وما تختلفون عليه هو كيف تحويل الثروة لهذه المراكز تحت حماية الشعارات الجوفاء التي تخدر الطبقة العمالية التي تنهب هذه الثروات باسمها.

بينما أنا لا أملك أي نوع من الثروة غير حريتي هذه التي تسلبونها تحت ستار البلشفية، بعض الناس يتسترون خوفاً على مراكزهم أو جبن أخلاقي جبلوا عليه، وأنا لا أملك وضعاً خاصاً أخاف عليه ، فأخلوا السبيل بيني وبين حريتي وقراري ...

من غيظي كدت أن أمسك بخناقه، لماذا يتجاهلني هذا التافه المأفون، البارد ولو كان يحمل لقب بروفيسور ...

أعادني صوته قليلاً لهدوئي وللأرض مرة أخرى :

يا ابني أجد لك كل العذر في أسباب نقمتك القوية هذه، ولكن ما ذنب روسيا وما ذنبي أنا أن كان والدك بوهيمياً خلق كل هذا العذاب في حياتك ؟!.

ولكن يا ابني والحق يقال كان والدك عالماً من العيار الثقيل، عالماً فذاً. وفوق ذلك كان فنان موهوب قبل أن يتزود بكل ذلك العلم وقبل أن يكون عالم من أوائل الذين تلقوا درجة الدكتوراه في الفيزياء ومن أعرق الجامعات الروسية...

كان يمكن أن تستفيد منه بلادكم كثيراً وأنت وأهلك بالتبعية أن قرر العودة بعد إكمال دراساته، ولكنه فضل البقاء هنا وسط الجليد بعيداً عن حر نار جهنم بلادكم التي لا تطاق كما كان يسر لي دائماً...

كان والدك من النوع الذي لا يعرف ما يريد من الدنيا أو ما تريد الدنيا منه، بوهيمياً كان كما ذكرت لك...

ومع حدة ذكائه الخارقة، كان جبان لا يقدر على مواجهة أي شيء ،كان دائم الهروب من كل شيء وأي شيء حتى نفسه..

كان فنان وعالم وفي هذا بعض العزاء، فأرجوك يا بني أن تجد له العذر برغم كل ما فعل، فمن منا لا يخطي ؟.

حب الجمال كان هوايته الأولى، وعيبه الوحيد هو عدم تحمله للمسئولية ولا مبالاته اللانهائية.

وهل يوجد سيدي للرجل عيوب أكثر من ذلك ؟.

صدقني كان دائماً يتذكرك، وكان قلقلاً عليك وعلى مستقبلك ، أخبرني أنه ترك والدتك حامل في شهرها الثامن. وهو حتى مماته لا يعرف إن كانت وضعتك على قيد الحياة أم لا؟ .

بمجرد إكمال دراسته كان متحمساً للعودة للسودان من أجل رؤيتك فقط لا من أجل الاستقرار هناك...

لولا أن دخلت في حياته سيدة روسية تدعى مارفا ليوبوف ، غيرت كل مجرى حياته...

في صرخة هستيرية خرجت من أين لا أدري ؟، قلت له : مارفا ليوبوف

ما بال هذه السيدة تطاردني، ما بال هذا الاسم الشيطاني يحل علي كاللعنة أينما حللت؟!.

مارفا ليوبوف منذ وطئت قدماي أرض روسيا صارت كظلي تلازمني في حلي وترحالي ...

مارفا ليوبوف في موسكو، مارفا ليوبوف في بطرسبرغ أيضاً...

وكأن الرجل أيقظته صرختي المدوية

أراك قد جزعت حين نطقت باسم مارفا، كأنك تعرف صاحبته؟.

كدت من غيظي أصرخ في وجهه

نعم أعرفها، وضاجعتها ، وأحببت ابنتها وماتت بسببي.

كدت أقول كل ذلك في وجهه دفعة واحدة، لولا حياء قليل خلفته في حياتي فاطنة بت محمود، أو قل بعض الجبن الذي ورثته عن سالم مهدي.

نعم عرف سالم مهدي مارفا ليوبوف ، وساكنها هو أيضاً لفترة طويلة...

التاريخ يعيد نفسه، أنا منذ دخولي منزل تلك اللعينة وأحس في قرارة نفسي بنفس تلك المقولة، التاريخ سوف يعيد نفسه...

العجلة سوف تدور والمسبحة ستكر، ويبدأ الغزو المغولي القديم الجديد...

كان ثمرة هذه العلاقة ابنة جميلة تُدعى فيرا ، ولكن بوهيمية سالم مهدي راودته من جديد وجعلته يهرب مرة أخرى ويترك منزل مارفا وكل ما تلقى من علوم ، ليعيش ما تبقى له من أيام بروسيا عازفاً متجولاً في حدائق بافلوفسك.

وهو التصرف الذي حير جميع من كانوا حوله وأولهم أنا، حتى وجد في ذات يوم وهو ميت بأحد أركان الحديقة ...

وقبل أن يكمل بروف رودر حديثه ، أحسست بأن الأرض تميد بي ولا أستطيع تمالك قواي...

كنت أعرف أنني على موعد دائم مع الموت، الشقاء والحرمان. ولكنني أيضاً بنفس القدر واليقين كنت متأكداً مع بداية موعدي مع الخلود يوم أعرف مصير المهدي... ولكنني لم أتصور برغم خيالاتي الجامحة ولو لثانية واحدة أن يكون المصير بهذه الصورة المعقدة...

فلم تكن هذه القصة من النوع مستحيل الحدوث ، حتى ولو كانت في هذه الأصقاع الروسية.

ولكن ما يذهل حقاً في هذه التراجيديا ، وما أوقعني في هزة نفسية عنيفة جديدة، هو أن ما زرعه سالم مهدي قبل ما يقارب العقدان من طفل سفاح كانت سوف تحصده فيرا رمز الطهر والنقاء ربما طفل سفاح آخر ومن نفس صلب سالم مهدي ويا لها من مأساة شديدة الإيلام والتعقيد معاً ...

لم أفق من صدمتي إلا في منتصف الليل في إحدى الغرف بمنزل بروفيسور بروفسكي .

وفيما يشبه خطرفة النائم رأيت فتاة شديدة الحسن والجمال كأنها من حور الجنان، تجلس بجواري وتقوم بوضع كمادات باردة على جبيني، كانت درجة حرارة جسمي مرتفعة ، عندما فتحت عيوني أخذت البنت تردد في سرها كلام مبهم كأنه صلاة حمد وشكر

في صوت خفيض يفتقد التركيز سألتها عما حدث بالضبط.

أجابتني بأنه لا شيء سوي أنني أخذت نزلت برد وحدث إغماء مفاجئ وقد حضر طبيب العائلة وطمأنهم بأن لا شيء يدعو للقلق وقد يكون الإغماء نتيجة البرد وإرهاق السفر...

حاولت النهوض من السرير، مارفا ليوبوف عشيقة أبي ...

فيرا سالم مهدي ... حبي الأول وربما الأخير ...

زوجة أبي ...

محبوبتي الطاهرة ...

حبي العذري ...

أختي ...

في لحظة خارج حدود الزمان والمكان ، كانت مثل تلك الكلمات تخرج من فمي في حالة أقرب للهذيان ...

قواي المنهارة لن تساعدني على والوقوف، رجتني الفتاة الحسناء أن أظل راقداً على السرير وألا أحاول القيام منه حتى لا يغمى علي مرة أخرى ثم حالتي لا تسمح بذلك .

استجبت لطلبها صاغراً ... فحالتي فعلاً لا تسمح بذلك ودخلت في غيبوبة جديدة دون أن أدري كم امتدت ...

أثناء ممارضة ابنة بروفسكي، وفي وقت من أوقات إفاقتي القليلة أثار رعبها وجود حشرة صغيرة بالغرفة. لم أستغرب لوجود الحشرة بهذا البيت فائق النظافة الممتلئ عن أخره بالكتب، ولكن مبعث استغربي نشأ من صرختها العالية عند اكتشاف تلك الحشرة الشاردة.

فأين حشراتهم النظيفة هذه من حشراتنا الزاحفة، المتسلقة والطائرة ؟. ويا لبساطة قومي في التعامل مع الحيوانات وحتى الحشرات، في بلاد تعرف قوانين الرفق بالحيوان طبعةً لا تشدقاً

وحيث يعيش الجميع في سلام، الصراصير والجرذان مرابطها مكان يقضون حوائجهم، والكلاب تشاركهم عناقريبهم لحظات الظهيرة في الحيشان الكبيرة. والحمير مرابطها بواباتهم ...

أولئك قومي فأتوني بمثلهم يا دعاة الرفق بالحيوان، في بلاد تتجاهل الرفق بمشاركيهم نعت البشر الذين لهم كبدا حرى وقلبا يخفق...

(٣٢)

في غربة وطن وذات تعصرانني ، جلست أكتب إليك اليوم أول رسائلي، لم يكن لدي يا فيرا شخص سواك .

للحظات خلت وليتها استمرت، خلتك حية ترزقين، ولكن كالعادة تزحم العين أشياء كثيرة تضيق بها، لكنما أجمل الأشياء تفتقد.

فلماذا لا تتبدد في حياتنا إلا الأشياء الجميلة؟

ولماذا لا يتبقى أمام ناظرينا إلا أسوأها؟

حيث أرقد هنا يا فيرا من شدة المرض، فقد تأتين وتغيري رائيك فيني وكالعادة ستجديني وحيداً ، فقد تعطفي علي ولو بنظرة ... من أول بلا ابتداء إلى آخر بلا انتهاء...

هذا العملاق الخاوي يحتاج عملاقة أخرى ممتلئة بكل شيء من العجز حتى الأخلاق . من ترى يكمل هذا الناقص؟.

أم يظل هكذا إلى الأبد ظمآن بلا تكملة، فارس مجرد من كل الأسلحة.

أأعيش بنص روح ودين أم تكتمل حلقات حياتي بالصورة التي يعهدها كل البشر ...

هذا الوهم الجديد، يريد أن يعصف بقسمي الأخير ، أن لا أعشق بعدها أبدا...

لكن حبها المتخيل قد ألهمني بمعان أخرى جديدة.

هل تتواصل سلسلة عذابك المكتوب منذ الأزل؟

أم تكون هذه رصاصة الرحمة، أخر المطاف.

عندما تذكر اسمها، يدق قلبك ، وتمنيت أن تأتي وتراك في هذا اللباس الأنيق، فاليوم أنت تتأهب للخروج في أحسن زينتك كأحد خلفاء عهد باذخ، عهد سابق كثرت أمجاده.

وها هي إذ تقبل حسناً فائق النبل من عهد شهرياري، ماذا فعلت سوى أن تراكمت عليك الآه والآهة ، ازداد حزنك المقيم ، اتسع الخرق ... حينما أخذتك المدن ، حتى أصبحت ذاك الإنسان القادم من تنويعات قرى الضياع والتيه...

أمامك يا فيرا يمكنني أن أصغر، أسمو وأكبر.

أمامك يمكنني أن أتخلص من كل ماضي إلاك ...

أمامك يمكنني أن أتقوقع على ذاتي أو أسترسل مع الجميع .

أمامك تستبين كل هفواتي وخطاياي ويستبين ضعفنا المشترك .

خلاصة حياواتنا ،كل شيء عندما يصب في باب الذكرى حتى مآسينا تصبح من باب الشجن الجميل وتصير مما نِحن إليه، حتى ولو جلب لنا لحظة حدوثه شتى أنواع الحزن والعذاب ...

آه منك يا ضعفي القوي...

آه لو ألقاك وعداً صادقاً، إني أضعتك من يديا ...

(٣٣)

مر أسبوع على تلك الحادثة ورويداً رويدا بدأت صحتي في التحسن فشكرت بروف رودر وتلك الفتاة الحسناء التي عرفت أنها ابنته على حسن الكرم والضيافة، فحقيقة الرجل وابنته لم يقصرا معي، وبكلمات الشكر تلك حاولت الاعتذار من الرجل على ما بدر مني بحقه لحظة أخبرني بوفاة سالم مهدي...

رجاني بروف رودر أن أظل معه عدة أيام آخر وأن بيته مفتوح لي في أي لحظة، شكرته مراراً ورجوته أن يسمح بسفري فأنا الآن على ما يرام وقد بلغت تمام العافية ثم أن بموسكو هناك الكثير الذي ينتظرني ...

وأنا بعتبة الباب أهم بالرحيل مودع الرجل، إذا بابنته تأتي مندفعة ورغم وقوف والدها بجواري، تعلقت برقبتي وترجتني أن أبقى معهم حتى تتحسن صحتي بالكامل...

هل تعلقت بي هذه الحسناء أيضاً؟...

حتى اللحظة لا أدري لماذا تتهافت النساء ويتساقطن من حولي كالفراشات التي تحوم حول النيران المقدسة والتي سوف تحرقها في نهاية المطاف ، ثم لا يلبثن أن يفررن مذعورات ...

إلا اللعينة مارفا فقد ضربت بأوتادها على نفسي وكانت لا تنوي الرحيل لولا هروبي المفاجئ...

تهافت النساء علي عموماً حاجز كسرته فيرا كقاعدة شاذة...

شكرتها جداً على الليالي التي قضتها ساهرة بجواري وهي تتأمل سحنتي الشهباء هذه وعلى شعورها النبيل الذي أبدته قبل قليل، ورجوتها كما رجوت والدها أن تسمح لي بالسفر فأنا بانتظاري جلائل أعمال علي القيام بها...

سوف أقوم بعمل ما لم يستطع سالم مهدي القيام به ...

ثم أنني غير مستعد بالمرة لتكرار غلطته . فنحن يا صغيرتي من أقوام منذ عهد انتهاء الخلافة غالباً ما نبذر بذورنا في غير أرضنا الطيبة، نعطي من دمنا وحمايتنا الكثير لكن قليلاً ما تأتينا بثمار طيبة والغالب تجيئنا بمعطوب الثمار وأقذره...

كان سالم مهدي كأجداده يرمي بذوره وغرسه في غير أرضه وأنا أريد أن أكسر القاعدة ولا أنوي أن يكون قدري مثلهم...

هوج الرياح يا صغيرتي لا تقدر على نثر ذوب حشاشتي في شق العدم لواقح لأجنة السراب ... الرياح يا صغيرتي لا تحتاج لإذن كي تعبر من بين الشقوق ... وأنا إنسان له كتلة... له حجم ووزن ... حتى ولو كنت كأجدادي أستعذب دفن اللواقح، هذه الأشياء الذي تعذب في شقوق العدم ...

(٣٤)

عدت إلى موسكو ـ حيث لا ترى السماء إلا نادراً، ليس لأن المباني تحجبها عن الأعين فذاك أمر يمكن تصور حدوثه في واشنطن أو حتى طوكيو ، ولكن لأنك لا تريد أن تراها بفعل شطحات أيديولوجية عمياء ـ ضارب عرض الحائط بتوسلات ابنة بروفسكي التي لم أعرف لها اسماً حتى اللحظة...

عدت إلى موسكو ، حيث هنا أصل المأساة سالم مهدي الهارب من جذوره، الهاجر لزوجته السودانية التي هي أمي التي أنجبتني، ليطلب ود وأحضان الحية الرقطاء مارفا ليوبوف التي تبث سمومها بين الأفخاذ وليس أخرهم أنا بالطبع...

وفيرا الموءودة بحب ساذج سذاجة تلك النظرات البلهاء التي كنت أرسل للمجهول ... وأنا وهي ولقاء مستحيل على فراش الميلاد...

كنت أمتلك قلباً كبيراً ، قلب طالما حاولت جسامة الأحداث أن تحطمه فلم تقدر ، ما بالي اليوم لا أدري ماذا أفعل ولا أين أتجه؟.

لماذا تحول كل ما أحمله بين أضلعي من حب يسع البشرية جمعاء إلى كل هذا البغض وهذا الحقد العظيم؟...

نعم إني أحبك يا فيرا حباً عظيماً لا يقدر مثل هؤلاء السفلة على فهمه.

نعم إني أكرهك يا مارفا ليوبوف في هذه اللحظة كما لم أكرهك من قبل .

مارفا كانت مثالا دقيقا لقصة فشل الإنسان في كل زمان ومكان، أما أنا ظمأ السراب وثورة الشوق المبين فيمكنني بعد كل الذي رأيت من أهوال أن أشق طريق نجاحي بسهولة...

ما أتعس الناجح بتفوقه ، إن عاش بين مجموعة من الفاشلين أمثالكم...

كل يوم من حياتي قضيته معك يا مارفا أنا نادم عليه، وكل يوم أضعته في البحث عن سالم مهدي يجب ألا يحسب من أيام عمري ...

...

أول يوم رأيتك فيه يا مارفا ليوبوف احتقرتك في نفسي لا أدري لماذا؟. فهناك أشياء كثيرة في حياتنا نكرهها ولكننا نعتاد عليها مع الزمن ونتعايش معها، كذلك كانت علاقتي بك...

لم أسرف في يوم من الأيام بتدليلك ، وليلة تسرفين في تدليلي أعرف أنك بالصباح أخطأت مع إنسان غيري، فالذي يدمن نثر العطور بلا سبب واضح، يدلك من حيث يدري ولا يدري لمكامن كريهة يحاول إخفاءها بتلك المبالغات ...

لم يكن اختلافي معك اختلاف تناسق بديع كتوالي الليل والنهار، ولكنه اختلاف شاسع كالذي بين الغيظ الاستوائي والصقيع الأوروبي ، وأنا لا أطلب اليوم لنفسي ثارا...

حقي أخذته بيدي، عقب كل ليلة ساكنتك فيها يا مارفا . وخلفته في شكل ألم ممض بين مكامن فضيلتك المُفترضة، وندوب غائرة

خلفتها أسناني في شفتيك وثدييك عندما تنتابك حالة الهياج السادية...

ولكنني أقتص اليوم لرمز الطهر والبراءة في كل حياتي، فيرا سالم المهدي... ولأمي التي ماتت وهي تكابد الآلام هجر سالم مهدي ولفاطنة بت محمود التي ماتت وفي قلبها شيء من حتى ...

كنت أمام خيارين نفسي والعادات والتقاليد التي جبلت عليها المجتمعات، فاخترت بكل أنانية المُهمل، نفسي.

أن أستجيب لصوت ضميري وأخضع لرأي المجتمع وأحترم سالم المهدي بعد كل ما فعل وخصوصاً بأمي ...

سالم مهدي الهارب دوماً من مسئولياته لم يكن في يوم من الأيام أبي الحقيقي، ولا والد المسكينة فيرا...

والدي يا سالم مهدي ليس هو من يوجدني على ظاهر البسيطة ... تلك عملية أقذر الحيوانات قادر على القيام بها وبجدارة.

الأب الحقيقي يا سالم مهدي هو من يلبي حاجيات أبنائه الجسدية والنفسية ويقوم برعايتها وهي تحبو بدايات طفولتها .

وهو دور لم تقم به أنت بكل أسف بل قامت به إنسانة شديدة الطهر تعرفها جيداً اسمها فاطنة بت محمود...

لم تكن هناك أي صلة بيني وبينك سوى شهادة الميلاد، ضاجعت صديقتك كما ينسب أهل هذه البلاد الصداقة لمثل هكذا علاقة شائنة، وكان يمكن بكل سهولة أن أتزوج نتاج هذه العلاقة الآثمة ،ابنتك.

(٣٥)

سالم مهدي قضى أواخر أيام حياته عازفاً متجولاً في حدائق بافلوفسك بعد أن ترك الجامعة وهجر مارفا . وربما أوهم نفسه القلقة المضعضعة بأنه فنان كبير استطاع التوصل إلى ما لم يتوصل إليه بقية خلق الله من أحاسيس ومشاعر .

صديق عمره بروفسكي صرح بما يشبه ذلك، لكن من أين يأتي عمق الإحساس لمن لم يشعر بآلام ابنه وأهله. وربما تحكم في موهبته تلك عوامل الصنعة الواردة من تطبع حياته بالمسخ الأوروبي .

سالم مهدي لم يتخذ وطناً له ولا إحساس صادق لمن لا وطن له.

سالم مهدي فيما أظن لم يكن فناناً عظيماً بل من أنصاف الموهوبين.

الفنان العظيم من يهدي أمته بل العالم بأسره إلى معالم الخير، الحق ، الفضيلة والجمال . وسالم مهدي لم يستطع حتى هداية نفسه لهذه المعاني النبيلة.

ومع ذلك لكأني في وقفة مكاشفة كهذه وحتى تهدأ الروح المكلومة، إني لأتخيل في هذه اللحظة طيف سالم مهدي يأمرني بالصدق والإخلاص والعودة إلى حظيرة الإيمان والأخلاق التي طبعتني عليها فاطنة بت محمود، أن أقف عند هذا الحد من التمرد الذي ترفضه كافة الأعراف والتقاليد.

روح سالم مهدي تأمرني بالصدق وهي ما كانت صادقة حتى مع نفسها...

روح سالم مهدي تأمرني بالإخلاص وهو الذي لم يعرف له معني ، تنكر لوطنه هجر زوجته وترك ابنة رائعة وراء ظهره للجحيم .

سالم مهدي يدعوني للعودة لحظيرة الإيمان وهو الذي لم يعبد إلا صنم ذاته عندما نصب من شهواته هادئاً له، يلبي كل رغباته الممكنة والمستحيلة...

سالم مهدي يا سادتي ، كان آفة حياتنا الكبرى أنا وفيرا والذي كبلنا بسلاسل من ماضٍ مؤلم شديد الحلكة...

ومع ذلك ... مع ذلك العفو ... العفو يا والدي ويا قيماً تربيت عليها ، فأنا الآن في ثورة غضب عارمة، لكن لا بد لكل إنسان سوي من الترفع على ضغائنه والعودة إلى طبيعته التي جبل عليها وأنا بت محمود جبلتني على الطيبة التي تسمو فوق كل الصغائر وتسامح ، وقديماً قالوا بغلبة الطبع على التطبع ...

(٣٦)

إني لأتذكر جيداً الآن أول يوم لوفاة الحاجة فاطنة ، وأنا ذاهلاً عن كل ما يحدث حولي، نُودي لصلاة المغرب وقاموا ببسط البروش على الأرض المرشوشة بالماء بفعل المطر، لصلاة الجماعة.

ريحة المطرة الخفيفة على حيطان الزبالة ربما أزعجت خياشيم حاج العبيد صانع العناقريب وهو يتمضمض بالوضوء ، لمتين يا جماعة الخير نصلي وسط حيطان الخره دي ...

دي صلاة شنو القائمة بين روث البهائم...

حاج سليمان حاضر الإجابة، ما طول عمرنا يا حاج بنصلي وسط الحيطان دي ولا الجد شنو؟...

حاج العبيد وقتها كان يرنو بعينيه ربما لأفق بعيد ، أو لبناية قامت وسط بيوت الطين بالطوب الأحمر.

ما فائدة البيوت والشوارع النظيفة يا حاج العبيد والضمائر شديدة القذارة.

إني لأتذكر جيداً ثاني يوم في مأتم بت محمود، حين رفضت إحدى الفتيات في عمل شاي العزاء بحجة التعب، والله أنا وقفت لما شعر جلدي غز.

إحدى كبار نساء الحي سناً، ردت عليها : إن شاء الله يا بت زينب ينغز فيك الما يمرق.

البنت لم تحر جواباً وردت عليها في صفاقة زائدة: آمين يا حجة، ما ده عز الطلب.

هل كانت تلك بداية الانهيار الذي نشهد أحد أهم فصوله في هذه السنوات؟.

ترى ماذا كانت تقول مارفا ليوبوف لو سمعت كلام بت زينب ، فتلك كانت إحدى أهم أمنياتها ومشاغلها في الحياة...

فاطنة بت محمود كانت تتهمني بأنني متلاف ومبذر ، وما بمسك القرش ما زي أبيك ، فكنت أرد عليها بأنني أملك هذه اللحظة ولا أستطيع الجزم بامتلاك اللحظة التالية لها، لذلك أحب أن أعيش لحظتي حتى الثمالة.

ترد علي وهي تضحك : ما أنت نفس طينة أبيك الخالق الناطق.

والله يا حاجة حيرتيني معاك ، طيب أنت هسه ما قلتي إني ما بشبه أبوي ، ثم ماله لو شابهته ، فمن شابه أباه فما ظلم...

زي أبيك في شيء واحد، كترت القراية والفلفسة "تقصد الفلسفة" بهدلتك وجننتك قبل أن تستطرد: كلامك كله أصبح كُتر.

كنت أضحك من تناقضات حديثها تلك فمن لا يعرف منطق الحاجة يستحيل أن يصل لمقصدها الحديثي، فهي تتحدث بمنطق لكل حادث حديث وعن كل حالة على حدة، ولعلمي المسبق بأنها كانت تفهم كل ما تتفوه به شفتاي وفهمي لكل ما ترمي إليه ...

فقد كانت حاجة فاطنة شديدة الذكاء، وحافظة لأجزاء كبيرة من القرآن على الرغم من عدم تلقيها لأي نوع من أنواع التعليم النظامي أو غيره.

وهي الجارة العالمة لا أكثر بحكم تجاربها، أخبرتني أنها حاولت ثني سالم مهدي عن الطريق المجهول الذي يسير فيه. لم تكن تدري بأن الإنسان عندما يحاول تقديم خلاصة تجربته الحياتية لمن يحب حتى من باب العشق الخالص، فإنه يحرمه متعة التجربة الخاصة به.

ورغم ذلك ... رغم ذلك ... ماذا كانت خلاصة تجربة سالم مهدي؟.

لم يجد حتى قبر مريح بين أهله وأحبابه، حتى ثمرة حياته لم يعرفها أو يستمتع برؤيتها زهرة يانعة تتأرجح بين الفضيلة والرذيلة . قول تراجعي كما تظن ... فأعذروني ...

أعذروا لي انفصام شخصية واجهت ما واجهت من مصاعب وتحديات وبطول الحياة التي عاشتها ...

ففيرا في نهاية المطاف نشأت بعيداً عن والدها في بيئة شبه أوروبية . قد يكون ذلك بعض الحقيقة المرة يا أبي ...

حيث لا حقيقة كاملة أبداً في هذه الحياة سوى حقيقة وجودك يا ربي ورب العالمين... عموماً سالم مهدي وقد مضى حتماً سيكون قد حصد نتاج تجربته ...

وأنا اليوم هل أستطيع تغيير مجرى التاريخ، وأفعل ما فشل سالم مهدي في فعله، أنا أسطورة هذا الزمان، ومسخه الجديد...

(٣٧)

ودخلت منزل مارفا ليوبوف بعد ما يربو على الأسابيع الثلاثة منذ وفاة فيرا .

كنت على قناعة تامة بأنها ما زالت حزينة على وفاة فيرا، تلك صورة ذهنية رسخها الحال والأدعية التي كانت تتمتم بها في مقبرة فاجانكوفو آخر مرة رأيتها فيها ...

لكنها خيبت ظني، كعادتها يوم خيبت ظني وجاءتني حبواً في حضرة ابنتها، ذاك الحضور الخائب الذي شكل ذهاب فيرا بلا عودة ...

...

حين رأتني مارفا احتضنتني بشدة ورجتني البقاء معها في المنزل وترك الداخلية للأبد، فبعد رحيل فيرا المفاجئ لم يعد لها في هذا الوجود سواي .

سأكون لها للأبد هكذا رجتني ... وعدتها بذلك ... أنا في حاجة لزجاجة فودكا ... بل نهر من الخمر ... يجب أن أحطم هذا الجبن الذي في قلبي ، بعض التركة المثقلة التي أورثني إياها رحيل سالم مهدي ...

في ليلة مثل هذه يجب ردم الهوة حتى ولو كانت ليست بذات قرار ...

وشربت حتى أصابني الدوار... وطلبتها واستلقت في السرير، في لحظة مثل تلك تحولت موسكو ، نعم موسكو لامرأة داعر ترقد من تحتي... حيث أنا الفاعل الأصلي والوحيد .

موسكو نفس المدينة التي ضاجع سالم المهدي قبل خمسة وعشرون عاماً وخرج مهزوماً ...

نمت لا أدري كم من الوقت، في منصف الليل تقريباً قد صحوت ورائحة الخمر تفوح في كل مكان .

رأسي يدور وثمة رائحة كريهة تنبعث من أماكن العفة المفترضة، رائحة الأطماع الأوروبية التي فاحت في اوسترلز وجتسبورغ ، والتي زكمت الأنوف فيما بعد قبل أن تمرغها في التراب في عكا وشارفيلد وكاسنغا .

وهززت مارفا ، قامت متثاقلة ، وطلبتها مرة أخرى للنوم، ورفعت رجليها لأعلى فهي كانت دوماً على استعداد لشيء مثل ذلك...

الشق المهترئ هذه المرة كان أوضح ما يكون ، لم تكن مارفا ليوبوف إلا داعرة محترفة... رفع الساقين دليل دامغ لتعود سابق...

تخيلتها في تلك اللحظة في بداية حياتها، غضة نضرة. رافعة ساقيها لكل غازٍ، حتى جاء سالم المهدي فلجمها حتى أثمر فيرا.

ثم طاولتها فترة ركود بعد الترهل ، أضحت ترفع معها الساقين للريح، الرحمة في الهواء...

ثم جئت أنا ظمأ السراب ولهفة الشوق المهين، فأضحت ترفعهما للتراب...

يا للهول، فخذان مرفوعتان مفتوحتان للريح والتراب...

فيرا كانت كياناً هشاً خلفه سالم مهدي، قابلة للانهيار والتصدع في أي لحظة، أول صدمة في حياتها قضت عليها...

ومارفا ليوبوف وجدت لتبقى ... لكنني اليوم هل أقدر أن أقلب موازين القوى وأقدر على تغيير مجرى التاريخ؟.

هل أخرج خنجراً حقيقياً وأدلكه بين نهديها كما فعل غيري من قبل، نهاية درامية شديدة الجاذبية...

ولكن مارفا ليوبوف لا تمتلك نهوداً ، بل شطوراً مهلهلة ، عفا عليها الزمن وكثرة العصر ...

سأغرس خنجري في مكامن عفتها المفترضة، لن أدلك مكمن أسرارها بعيني كما فعل غيري.

فمارفا لم تكن تمتلك مستودع أسرار، بل متجر عام دخلت فيه كل بضاعة فاسدة وأولها أنا.

سأغرس في الشق المهترئ كل آلامي وهذا وحده يكفي ...

وصرخت مارفا ليوبوف بشدة، لا أدري لماذا؟.

وبين صراخها قالت لي: لماذا فعلت ذلك؟.

حتى تلك اللحظة كانت تظن أن هناك شيئا حادا يشق طريقه ليدخل بين أحشائها ... مع أنني لم أغرس شيئاً في الشق المهترئ ولا غيره...

بين شهقاتها غير المبررة تلك ، سألتها : هل تعرفين سالم مهدي؟.

نعم أنني أعرفه حقا المعرفة، الإجابة أكاد أتبينها من بين صوتها المتهاوي مع أنني لم أغرس شيئاً بين مفرقيها حتى اللحظة ...

هل تعرفين إنه والدي ووالد فيرا ابنتك ... فيرا أختي التي ماتت من هول شنيع فعالنا المشتركة ...

لم ترد علي مع أنني في هذه اللحظة أشد ما أكون لإجابتها تلك...

نظرت إلي في شبق شديد وكأنها نظرتها الأخيرة ، لا أدري لماذا؟. مع أنني لم أغرس شيئاً حتى اللحظة ...

إذن هو والدك، سالم مهدي ... ذاك رجل ... ذاك رجل ...

رجل لا يعرف عن المرأة إلا ما بين مفرقيها، مواطن النوم العميق...

الآن عرفت الشيء المشترك بينكما، يا لي من غبية لم أتبينه كل هذه الفترة

هذا الشيء الكبير ، المريح... ثمة ألم عظيم يفرم أحشائي دائماً، لم يكن قادراً على إسكاته إلا أنت وسالم مهدي، نعم إنكما تتميزان بذلك دون كل رجال بلدي ... حيث البرد قادر على أخذ كل كبير ومريح ...

هذه المرأة اللعينة، حتى وهي تغازل مرحلة القبر، لا تنظر إلى الدنيا إلا من خلال فجوتها المتعفنة تلك ...

هذه المرة لن أفِ بعهدي معك مارفا، وخرجت وتركتها وحيدة وسط بركة من دمائها التي تخرج من الشق المهترئ وبغزارة ولا أدري من أين وكيف تنبعث ؟.

فأنا حتى اللحظة لم أغرس خنجري الحقيقي أو حتى الوهمي ...

بعض هذه الدماء ربما كانت لي، وبعضها خرجت من صلب سالم مهدي وبعضها خرج من بين فرث ودم من هنا وهناك، فالغزاة كثر في هذه الديار على مر التاريخ...

ولكن الدماء شديدة السواد هي بالتأكيد لي فقد كنت الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة الممتدة...

وتناثرت دماء مارفا على الأرض، مع أنني لم أغرس شيئاً، ولا أعرف حقيقةً، مصدر هذه الدماء ...

كل نقطة سقطت منها خير لها أن يتخطفها الذباب من أن تسري في جسدها المتعفن...

لن أقتلك مارفا وسوف أجعل عوامل الزمن والإهمال يفعلان فعلهما معك ...

فلماذا أريحك يا مارفا من عذاب الدنيا الذي سوف تعانيه أواخر أيامك من وحدة وعزلة وانفضاض السامر؟! ...

فأنت إنسانة يحوم الموت من حولك وأنت قابلة له في أي لحظة ...

ثم أنه لماذا أضيف دماً جديداً للدماء التي تهرق في هذه اللحظة في بقاع شتى من الأرض نتيجة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان؟!...

سوف أترك عوامل التعرية والفناء تعملان فعلهما معك ...

(٣٨)

قاصداً مقبرة فاجانكوفو، كنت أعلم يقيناً أن الفجر يولد من جوف الليل، وأن أشعة النور تتسلق أكتاف الظلام وتتسلل للوجود ...

قد تشرق شمس من هنا ، وقد تغرب من هناك . لكن مهلاً اليوم يا قدر حياتي ...

ليلي البارد الطويل فتحت ضربات قدري الاستوائي

ترحل ثلوجي الغاربة ...

أنا اليوم مع ذاتي أتوحد، أفنى وأولد ، حيث الخلاص والتواصل مع كل أشواقي العلوية...

ها أنت ذا يا حبيبتي فيرا ترقدين تحت الثرى تلتحفين سماء الخلود، ضحية لكل نزواتنا ...

هكذا كنت رمز الطهر والبراءة ، وهكذا كنت أنا دليل الخيانة والشؤم فالذي كان يقف بيننا طول الجدران التي أقامها سالم مهدي وجليد الصمت...

قرأت الفاتحة على روح فيرا الطاهرة.

هذه قبورهم وتلك قصورهم، نعم الحياة عزيزة ومع ذلك لا تستحق كل هذا الاقتتال الذي نعاني فصولاً شتى منه وفي كل بقاع العالم المختلفة نتيجة أطماع إنسانية محضة لا حدود لها، فخيرات الدنيا تكفي الكل وزيادة .

(٣٩)

في لحظة هاربة كهذه رماد ذكرياتي الحزينة يتناثر على كل الفضاءات التي حولي، فلماذا ننظر للدنيا دائماً من خلال نظارة شديدة القتامة، ولماذا لا نعطى أنفسنا مساحة للتسامح والترفع عن ضغائننا الموروثة؟.

يممت وجهي وقبلها خطواتي تجاه قبر سالم مهدي مرة أخرى.

ادعاء المقدرة على البقاء رغم الزمن مغالطة ، عواطفي في هذه اللحظة محايدة تماماً لا تستطيع التفرقة الحقة بين الحزن والفرح ، النبل والسفالة.

وأنت اليوم يا سالم مهدي فوق المساءلة، فوق العتاب وكل ما صدر منك صحيحا بمقاييس الشفقة والرحمة، فأنا أخلاقياً على الأقل لا يمكنني مصارعة جثة ، رغم ظن مارفا ليوبوف بأخلاقياتي الظنون .

أخطاء لا يمكن تجاوزها بالمقاييس الغربية ، ولكنها تظل تنبعث فينا في ظل التسامح الشرقي الأصيل ومقدرتنا السودانية المذهلة في التشكل مع معانيه الإنسانية النبيلة ...

اليوم سوف أسمو على ذاتي ، سوف أغفر لك كل ما فعلته معي، هذا الجسد الشهواني ، قادر على التحول لنطفة نورانية ، تستطيع تشكيل الحياة بصورة أفضل مستقبلاً.

جلست على ركبتي وقرأت الفاتحة على روح والدي بصوت مسموع. من يرى المشهد في تلك اللحظة ، في مثل تلك البقعة وبهيئتي تلك، يظن أن روحاً شيطانية خرجت تعبث بأرواح موتاهم ، باسم الشفقة .

لم يكن مكانك يا أبي ، لا أنت ولا فيرا مثل ذلك المكان...

ثمة نداء علوي لا أدري مبعثه كان يتردد في المكان من حولي ، نداء لأماكن طالما اشتقت لأكون فيها، صوت آذان ـ آذان في تلك البقعة المعتمة من العالم! ـ كصوت المؤذن في المسجد المجاور لمنزل فاطنة بت محمود، لم تكن في تلك البقعة مساجد، وأقرب مسجد أظنه تحولا لمتحف...

خارجاً من مقبرة فاجانكوفو ، ثمة أصوات علوية تتجاذبني، أصواتا كأنها تنبعث من عالم آخر.

أخذت أتسلى بجمع بعض الكرات الثلجية، أقذف بها ذات اليسار مرة وذات اليمين مرات.

في دواخلي كانت تتسع مساحات الخلود الأبدي ، وتتلاشى مساحة الإنسان ...